لوسى يعقوب

عصفور الشرق

توفيق الحكيم

فى حوار حول أفكاره وآثاره »



الدار المصرية اللبنانية



عصفور الشرق

توفيق الحكيم



عصفور الشرق

توفيق الحكيم

«فى حوار حول أفكاره وآثاره»

لوسى يعقوب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الناشـــر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٣٤٧٦/ ٩٤
الترقيم الدولى : 5 - 140 - 270 - 977
طبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م
تصميم الغلاف : عمرو فهمى

« الجنين .. لا يولد فى الاضواء
الباهرة.. وإنما فى وعاء مظلم صامت
.. والفنان لكى يستعد لجنين الفكرة
.. يجب أن ينقطع لها ..فى الصمت
والظلام .. »

« توفيق الحكيم »



مقدمة

فى أكتوبر / ٨٦ - وفى مكتب « راهب الفكر » بمبنى جريدة الأهرام .. كانت شموع عيد الميلاد .. تتوسط « تورتة » فاخرة .. بتحية رقيقة من الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة الأهرام للكاتب الكبير .. يهنئه بعيد ميلاده السعيد .. ويتمنى له دوام الشموع المشتعلة .. ويقصد بها .. شموع الفكر .. وشموع العمر .. !

وكان صباح يوم الخميس .. وهو اليوم الموعود لتسجيل حلقة خاصة .. من البرنامج التليفزيونى « شموع » مع راهب الفكر .. وضيوفه .. وكاميرات التليفزيون على استعداد .. وأسرة برنامج شموع - الأستاذة المخرجة ثناء محروس - والأستاذة مقدمة البرنامج سهام صبرى - وكاتبة الحلقة .. لوسى يعقوب .. وأدباء مصر ضيوف هذه الحلقة الخاصة .. الفنان الكبير صلاح طاهر .. الكاتب الكبير نجيب محفوظ .. والأديب الكبير ثروت أباظة .. فى انتظار حضور المحتفى به .. رائد الفكر « توفيق الحكيم » ..

وهنا دخل « عم حسين » المرافق الخاص لتوفيق الحكيم . وسلمنى هذه الكلمات المسجلة فيما يلى .. والتى منها يمكن أن ندرك تقرير

الطبيب فى صباح يوم الأربعاء . . وتقرير توفيق الحكيم . . صباح يوم الخميس . . وكل هذه التقاريروالملاحظات (بدون تاريخ) . . !

وقد راعى توفيق الحكيم تحديد المكان الذى تسجل فيه حلقة «شموع» وهو . . غرفة مكتبه . . إذ سجل على المظروف هذه العبارة «مدام لوسى يعقوب . . ستكون موجودة فى الدور السادس » مع التليفزيون ولا مانع من تصوير الغرفة . .

وأضيئت الشموع . . وأُطْفِئتِ الشموع ، وترددت أغنية « عيد الميلاد» بين الحاضرين من أسرة جريدة الأهرام . . وأسرة التليفزيون والسادة الأدباء .

وبعد إذاعة الحلقة . . وسماعى رأى الحكيم فيها . . أنها « حلقة ممتازة » وأن هذا هو ما كان يريد أن يتحدث الأدباء عنه . . وقد تحدثوا . . وأفاضوا . . فى آخر « شموع » لتوفيق الحكيم .

ومن تاريخ « شموع عيد ميلاد الحكيم » كان الحوار بينى وبينه «تسجيلا » لعمق فكر . . راهب الفكر . . من واقع فكره وأعماله . . وبناء على رغبته هو . .

يقول « توفيق الحكيم » إن الحوار . . هو ذلك القالب الذى يحبه بين قوالب الأدب . . لذا فقد اخترت له هذا اللون الذى يحبه . . وكان من أمتع ما لقيت فى حياتى . . الأدبية . . حوارى مع « توفيق الحكيم». .

هذه الشخصية التي يخدعك مظهرها الهادىء . . الصامت . . المفكر . . المستكين . . وإذا ما اقتربت منها . . وأثرت سؤالاً . . أو

فتحت باباً للنقاش . . انفجر البركان . . وكشفت تلك الشخصية عن طبيعتها التى تغلى كالمرجل . . بأفكار متقدمة . . خلاقة . . محلقة . . تمتد وتمتد . . إلى مالا نهاية . . حتى وكأنها . . تخترق الحجب . . ؟

والعقل الباطن للتجربة البشرية عند « توفيق الحكيم » هو الذى يتحرك دائما . . ويتطلع دائما . . ويصبو دائما . . إلى تحقيق مالا يمكن تحقيقه إلا بالإمعان فى تجسيد الرؤى . . إلى حقائق فعلية . . يتخيلها . . يعايشها . . يبلورها . . ثم يقتنع بها . . ويسجلها ، لا على أنها متطلعات العقل الباطن ، ولكن على أنها أشياء ثابتة يمكن تحقيقها . . وتنفيذها . . وخاصة إذا كان مبدعها « فنان » فالفن حينئذ . . يتخذ شكلاً أسطورياً . . يخلقه العقل الباطن للفنان . . ويحققه العقل الواعى وينفذه . . على أقل تقدير – فى صورة – قصة – أو مسرحية – نراها نحن من « أدب اللامعقول » ويراها الفنان . . أدباً خالصاً . . استناداً إلى خلقها وتعايش عقله الباطن بها . . واقتناعه . . بمذهبها . . وفكرتها . . المعقولة تماماً . . ؟

وهكذا . . كانت كل أعمال « توفيق الحكيم » استنباط الحلم . . من الواقع . . واستنباط الحقيقة . . من الخيال . . وتجسيد هذا الحلم . . وهذا الخيال . . إلى عمل فنى . . بصياغة فنية . . لتجربة بشرية . . إنسانية . . نبعت من « فكرة » أو رؤيا . . أو حادث . . أو انطباع طويل المدى . . رسخ بعقل حكيم . . ثم أطلقه . . عملاً فنياً متكاملاً . . على الورق . . . !

وهذا المذهب الإنسانى . . والصراع الدرامى . . بين الإنسان . .

وقواه الخفية . . بين فكر . . ورغبات . . وأمانى . . وأحلام . . كيف تتجمع خيوطها . . لتنسج نسيجاً فكرياً . . بالغَ حرية الفكر . . وبالغ تقدم العقل الإنسانى فى تصور أحداث . . وشخصيات لا يمكن أن يخلقها إلا العقل الباطن . . لفنان عرف كيف يبعثها من مرقدها . . فيحيلها . . ناراً . . وشراراً . . يضىء . . ويشتعل . . ويؤثر . . . ؟

وتوفيق الحكيم . . كما سُجل فى شهادة ميلاده من مواليد الإسكندرية . . وكاتبة هذه السطور من مواليد الإسكندرية أيضاً . . لجيل لاحق – هو جيل أدباء الوسط – بعد جيل العمالقة . . الذى تشرب . . من أصول الفن . . ومهد العلم والحضارة . . وكان الحوار مع « توفيق الحكيم » حواراً مع أمواج البحر المتلاطمة . . وهدوئه بعد صخب وضجيج . . وتجاوباً لمشاعر نفس ولدت فى مكان – استنشق عبيره . . كاتب خلاق . . ! فلا غَرْوَ إذاً أن يلتقى الموج الثائر . . بلمسات خفاقة . . لتقدم لوناً من ألوان وكتابات وتمازج فكر الإسكندرية « عروس البحر » باعثة النهضة الفكرية . . وأسس حضارة الفن . . ونبع الأصالة . . والجمال . . بتواصل الأجيال ...

لوسى يعقوب

مصر بين عهدين

« المصلحة الشخصية ـ هى دائماً ـ الصخرة التى تتحطم عليها ـ أقوى المبادىء !»

« توفيق الحكيم »



الحكيم وعودة الروح :

س ـ ثورة / ١٩ – فَجَّرَت الروح المصرية . . وفجرت معها . . ينابيع الأدب . . الكامن فى نفوس الشباب الموهوب . . وكان سلاح «توفيق الحكيم» القلم . . كيف انعكست هذه التفجيرات الوطنية . . لتلهب حماس – حامل القلم – «توفيق الحكيم» . . ؟ إذ أنه من المعلوم . . أن القلم فى يد الكاتب . . مثل السلاح فى يد الجندى . . كلاهما يؤدى الغرض المطلوب منه . . ؟

جـ – فعلاً . . هذا حق . . فالقلم مثل السلاح تماماً . . وخاصة فى أيام الثورات الوطنية . . إن لم يكن أمضى مفعولاً . . وأشد أثراً . . وتأثيراً من السلاح المعدنى . . فالقلم يعبر عن الروح تماماً . . والروح متى اشتعلت . . تفجرت منها . . شرارات الحماس . . المثمر . . ! وكانت الروح القومية سائدة فى مصر . . ملتهبة الحب الرومانسى . . لمصر . . ومصر . . ومصر . . وكان هذا أيضاً نتيجة لتأثير خطب مصطفى كامل . . الحماسية . . التى تعبر أعمق تعبير . . عن هذا الحب . . كان يتغزل فى مصر . . كما يتغزل العاشق فى معشوقته . . واشتعل الحماس . . فى الفكر . . فى الفن . . فى الكلمة . . وظهر نشيد–

بلادى . . بلادى لك حبى وفؤادى . . مستمداً من خطب مصطفى كامل . . وأغنية أخرى لسيد درويش . . تقول :

يا مصر بعدك . .

مالناش سعادة . .

لولا اعتقادنا . . بوجود إلهنا . .

كنا عبدنا . . النيل عبادة . .

كل الكتاب عاشوا ثورة ١٩ لهذا . . كتبت رواية « عودة الروح» وكنت فى هذه الفترة أدرس فى باريس . . وكان الحنين شديداً لمصر . . وكانت هناك الدعوة لخلق شخصية مصرية . . وأدب مصرى . . خاصة وأنه فى حوالى عام / ١٩١١ - كتب «هيكل » رواية « زينب » وفيها نوع من التغنى لمصر . . وجاءت « عودة الروح » - لتعبر عن أدب مصرى . . وشخصية مصرية . . ؟

■ ■ ■

س - فى مطلع الثلاثينيات - اعتبر « توفيق الحكيم » كاتباً للشباب- وكان اللقب هو « توفيق الحكيم » - كاتب الشباب . . ما سبب هذا اللقب الذى أطلِق عليك . . ولماذا . . ؟

جـ - جاءت هذه التسمية . . للحماس الشديد الذى قوبلت به رواية « عودة الروح » . . وخاصة من الشباب . . لذا فقد اعتبرونى كاتبهم الأوحد . . أيضاً استقبل هذه الرواية من

الشباب الجامعى - الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتورة نعيمة الأيوبى . . وهذا ما دعا - أحمد حسين . . وفتحى رضوان - أن يطلبا منى الاشتراك معهما فى تحرير مجلة للشباب . .

■ ■ ■

س - مادمنا فى حديث عن « عودة الروح » . . هل تمثل هذه الرواية بالفعل . . تاريخ حياة توفيق الحكيم . . ؟

جـ - بلا شك . . فالتأثر والتأثير واضحان . . وشخصية حامد بك العطيفى هى شخصية والدى . . ثم شخصية «محسن» فهى تمثلنى . . وفيما بعد . . كانت زوجتى تنادينى دائما . . وتحب أن تنادينى باسم « محسن » . .

■ ■ ■

س - رواية «عودة الروح » كتبت فى عام ١٩٢٧ وحماس ثورة / ١٩ - هل ظهر منه أى شىء فى إنتاجك الفكرى . . ليعبر عن تلك المرحلة الثورية . . فى فكر الحكيم . . ؟

جـ - كتبت مسرحية « الضيف الثقيل » . وكانت رمزاً واضحاً للاستعمار . ورفض هذا الاستعمار . . ولكن الرقابة التى فرضها الإنجليز على كل الأعمال الفكرية - رفضت السماح بتمثيل هذه المسرحية- فظلت الروح القومية . . متمكنة من المشاعر والوجدان ، حتى نضجت الفكرة تماماً واتضحت الرؤيا . . فكتبت رواية « عودة الروح » . . !

■ ■ ■

س - هل تتمثل « شخصية مصر » فى « روح مصر » . . وهل هناك تناقض بين التعبير عن الشخصية . . والروح . . ؟

جـ - إننى لا أحب أن أستخدم عبارة . . « شخصية مصر » . . لأن الشخصية تتكون من عناصر منوعة . . منها : الجغرافى . . والتاريخى . . والسياسى . . والاجتماعى . . والعلمى . . والأدبى . . والفنى . . ولابد أن يلم بكل هذا . . من يريد أن يبحث فى أى شخصية . . سواء البحث فى شخصية فرد . . أو جنس . . أو وطن . . كما لابد له من اتخاذ المنهج . . ثم المراجع المختلفة . . اللازمة لبحثه . . ولما كان الذى يهمنى هو « الروح » . . والروح كما توجد فى القواميس اللغوية . . قريبة من « الرائحة » . . فإذا أردت أن تشم وردة - فإن الذى يصل إليك . . رائحتها . . لذا فإننى عندما أقول « روح مصر » . . فإننى أشم فيها . . رائحة مصر . وكان هذا شعورى يوم كتبت فى العشرينيات - أى بعد قيام ثورة / ١٩ - بنحو سبع سنوات - رواية « عودة الروح » أى « روح مصر » ولم يكن قصدى تأليف رواية ، بل إقناع نفسى بأنى أنتمى إلى بلد . . له كيان . . محدد مستقل، له تاريخ طويل . . نمنا فيه . . وآن لنا أن نستيقظ . . وتعود إلينا الروح . . التى اختفت عنا . . وعن الآخرين . . تحت تراب الزمن . . ؟

مسرحيات الحكيم

بين عهدين

« ما يكاد يختفى شبح الحروب .. ويسكن ثائرها .. وتنقشع غيومها.. حتى يطيب أحياناً للفن .. أن ينطلق من جو المسائل القومية .. إلى جو المسائل الإنسانية .. »

« توفيق الحكيم »



مسرحية المرأة الجديدة :

س - فى عام / ١٩٢٣ - كتبت مسرحية « المرأة الجديدة » وكانت بدء عدوانك للمرأة . . تدور حوادثها نحو الأفكار العصرية . . بتحرر المرأة من سيادة الرجل . . والمساواة بين الجنسين فى العمل . . والتوظيف . . والحب المنطلق من كافة القيود . . ماذا كان الهدف . . من هذه المسرحية الممجوجة . . فكراً . . وقالباً . . ؟

جـ - كانت الفكرة أساساً ترتكز على قضية السفور . . والحجاب . . التى نشطت فى ذلك الحين . . ذلك الموقف الذى ينم عن خوف وقلق . . وكان مصدر الخوف والقلق . . كما سجلته المسرحية راجعاً إلى ناحيتين : أثر السفور فى فكرة الزواج عند الشباب من الجنسين . . وأثر الاختلاط السافر فى الزوجية المستقرة وحياة الأسرة . .

وقد كان القلق والخوف على الشباب من أن ينصرفوا عن الزواج . . ما دامت المرأة قد خرجت لهم سافرة . . وأن يجدوا فى تقارب الجنسين وسهولة الاتصال بينهما . . ما يطفىء رغبة التلاقى عن طريق الزواج . . كما كان الخوف والقلق من السفور فى الأسر . . واختلاط زوج هذه بزوجة ذاك . . أو بغيرها . . أن يؤدى الأمر إلى انهيار الحياة الزوجية . .

■ ■ ■

س - ألا ترى بأنك بهذه المسرحية قد ظلمت المرأة الجديدة ظلماً فاحشاً . . وألبستها ثوب الانحلال وعدم التمسك بالمثل والقيم . . وأمانة الحياة الزوجية . . مما هو بعيد كل البعيد عن مفاهيم المرأة الجديدة التى تحصنت بالعلم . . والفكر . . والخلق . . والشخصية القوية . . ؟

جـ ـ لقد أدركت هذا فيها بعد . . ومما لا شك فيه قطعاً . . أن الجيل الحاضر . . يدرك تمام الإدراك أن بعض تلك المخاوف لم يكن لها محل . . فالأيام . . قد أثبتت أن سفور المرأة . . لم يؤثر فى فكرة الزواج . . بصورة تدعو إلى الانزعاج . . ؟

■ ■ ■

س - وهل ترى - أن أفكار اليوم . . سوف تبدو غريبة فى عين المجتمع . . الذى سيولد بعد ثلاثين عاماً . . ؟

جـ - بالنسبة لما حدث من تطور للمرأة . . فإننى أومن أن هذا سيحدث . . ولو أننى عالجت هذا التطور بصورة متطورة أيضاً . . فى بعض التمثيليات التى تعالج قضايا المرأة الجديدة المتحررة . . مثل . . « النائبة المحترمة » التى تتعرض للحركة النسوية . . و « أريد هذا الرجل » التى . تصور حرية المرأة . . وهذا شيء غير مستبعد اليوم . .

مسرحية رصاصة فى القلب :

س - نأتى بعد ذلك إلى التطور الفكرى . . فى المسرحية التى تلت مسرحية « المرأة الجديدة » وهى مسرحية « رصاصة فى القلب التى كتبت فى عام / ٣١ - وأنت تكتب وفق ما يحيط بك من مؤثرات - ما هى ظروف كتابة هذه المسرحية . . وماذا كنت تقصد بها . . ؟

جـ - فى الواقع . . كما تقولين . . فإننى أكتب كل شىء من واقع الحياة من حوالى . . وما كتبت « رصاصة فى القلب » إلا لكى أعبر عن الإطار الذى حاصرت نفسى به . . فإن ما أكتبه بمرارة فى ظرف معين . . أو فى حالة معينة - أو لمعاناة - أو قضية . . ليست هى لحظات المتعة التى يجب أن يعيش فيها الكاتب . . وقد قررت أن أعيش لحظات المتعة هذه . . وأنا أكتب رواية . . أكتبها وأنا أضحك . . وكانت هذه الرواية هى «رصاصة فى القلب » . .

لم تكن لهذه الرواية أية خلفية معينة . . أو أى معنى . . فقط . . لحظة تفاؤل . . مرح . . بشر . . انسجام . . كنت فى «ستانلى » وستانلى هذه لها معزة خاصة فى نفسى . . وكان معى صديقى . . سليمان نجيب . . سألنى نجيب . . ما معاكش جنيه سلف . .؟ قلت له : مفيش . . مد ايده . . وخطف

المحفظة . . وأخذ الجنيه . . قلت له الجنيه ده بتاع ستى . . هى بتحب البطارخ . . وأنا رايح اشترى لها بطارخ . . فقال سليمان . . الله يرحم ستك . قلت له : ستى عايشة . . بقولك حاشترى لها بطارخ . . ضحك سليمان نجيب وقال : الله يبارك لها فى الجنيه . . ؟

ومن هنا انبثقت فى ذهنى فكرة « رصاصة فى القلب » بطلها « مفلس » . . ويحب السلف . . وكتبتها . .

لم يكن لها أى هدف . . كنت أريد أن أضحك على صديقى . . وأصوره . . وأصور حياة العزوبية . . كتبتها خصيصاً . . « لسليمان نجيب » بقلبه الطيب . . لقد أوحى إلى هو بفكرة هذه الرواية . . والشخصية الأساسية . . شخصية « نجيب » كتبتها مرسومة عليه تماماً . . وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى كتبته بمتعة . . بمزاج . . الشىء الوحيد الذى يمكننى أن أقول إنه « كتابة بلا رجوع إلى حدث معين . . أو تعايش مع حالة معينة . . كانت لحظة انطلاق ومرح ».

■ ■ ■

س - عندما تتحدث عن هذه الرواية . . لِمَ تضحك . . وكأنك تستعيد بها ذكريات ضاحكة . . ؟

جـ - الرواية بالفعل . . لها ذكريات . . و« خناقات » جمعية أنصار التمثيل والسينما . . « اتخانقوا » عليها . . كان فيها -

سليمان نجيب . . محمد عبد القدوس . . ونجيب الريحانى . . كان يريدها نجيب الريحانى . . ولم تمثل على المسرح إلا بعد الستينيّات . . بعد أن مثلها صلاح ذو الفقار . . !

وحتى فى جمعية « أنصار التمثيل والسينما » دارت فيها خناقة . . بين سليمان نجيب ومحمد عبد القدوس . . نجيب يقول « الجنيه أخذته أنا » والرواية كتبت لى أنا . . ومحمد عبد القدوس . . يصر على أنها شخصيته . . أما الريحانى فأصر قائلا : الرواية دى لى أنا . . أنا عندى مسرح . . ودول جماعة بيهرجوا . . وبيستلفوا المسرح . . وأنا اسمى نجيب . . وبطل الرواية « نجيب » اختلفوا . . لأنهم كانوا شركاء . . وفوضويين . . نجيب الريحانى . . يصيح :

- أنا عندى جمهورى . . وأنا عندى شخصيات الرواية . ؟

وكانت الرواية فى مكتب سليمان نجيب . . وكان سكرتيرا لوزير العدل . . وكان مع أحمد الصاوى محمد فى المجلة التى كان يصدرها . . وكنا نجلس معا . . وأخرج سليمان نجيب الرواية من درج المكتب وقال .

- توفيق الحكيم عمل حاجة كويسة خالص . .

وخطف الصاوى محمد الرواية . . وطبعها . . لينشرها . . غضبت أنا جداً . . وقلت له : أنا لا أسمح لك بطبع حاجة بالعامية . . الناس لسه بتكتب عن « أهل الكهف » وشهرزاد . . الكتابة الذهنية . . والفكرية . . كتب عنها - العقاد - وطه

حسين - وأحدثت كتابتها عنها . . ثورة فكرية . . وزلزالاً أدبياً . . ثم تأتى أنت لتنشر لى بالعامية . . دى مسخرة . . !

وصاح الصاوى : مسخرة إيه . . دى زى « موليير » . . خلاص . . المطبعة طبعتها . . والملازم انتهت سيبها كده . . هى دى اللى حتنجح . . أنا مبسوط منها . . وانت بتقول دى كدب . . يعنى لازم فئة المثقفين بس . . هى اللى تقرا . . !

وكتب عنها الصاوى . . بأنها رواية « موليير الشرق » وطبعها بالملزمة . . الأولى . . وكانت الصفحة الاولى دائما تفتتح بمقال يدافع فيه عن « هدى شعراوى » ولكن بدلاً من هذا . . وبدلاً من المقالات الأساسية . . نشر « رصاصة فى القلب » بالعامية . . ونجحت نجاحاً كبيراً . . ونفد العدد الأول . . وأعيدت طباعته .

وكان الناس مشغولين بها . . ويكلم بعضهم بعضاً بألفاظ الرواية . . وعلى سبيل المثال :

- أنا مش فاضى . . أحتقرك . .

ولكن « طه حسين » لم يرض بهذا . . وكتب فى « مجلتى » التى يحررها الصاوى محمد . . ينتقد هذا السفه . . وهذا التهريج . . ويعيب على . . هذا الانحدار الفكرى . . بعد ارتفاعى . . على حد قوله . . فى شهرزاد . . أهبط هكذا إلى مستوى . . « رصاصة فى القلب » ولكن الصاوى لم يتراجع واستمر فى نشر فصول الرواية التى صادفت نجاحاً . . أيما نجاح . . !

وهذه الرواية . . كانت رواية الخناقات . . والخلافات الأولى كانت خناقات المسرح . . ثم بعد ذلك . . خناقات السينما . . نجيب زعل . . لأنه كان يريد تمثيل الدور فى السينما . . نجيب . . دمه خفيف . . وأمامه بنت حلوة . . بنت جميلة . . ولم تكن فى ذهنى . . واحدة معينة لتمثيل هذا الدور . . البطل كان على المسرح اسمه « نجيب » وفى السينما « محسن » . . وشوشروا على الرواية . . لما ظهرت فى السينما . . وكتب الصاوى يقول . . « إن الدور كان دمه ثقيل . . لما قبله « عبد الوهاب » وكان مقلباً . . أراد أن يتخلص منه محمد كريم . . فأذاع أن الصاوى كان يريد تمثيل دور « الطبيب » وطلب مائة جنيه .. فلما رفض كريم طلبه . . شنع عليه . . وتخلص من مقلب الصاوى وجاء . . وبالاً عليه . . !

■ ■ ■

س - رصاصة فى القلب . . « بين عهدين » الماضى . . والحاضر . أيهما ترى قد حاز قبول مؤلفها . . ومبدعها . . وخالقها . . توفيق الحكيم - زمان . . أو . . الآن . . ؟

جـ - أنا دلوقت . . لما شفت « رصاصة فى القلب » أخيراً . . فى التليفزيون . . أعجبنى العرض القديم فى السينما . . إذاً . . مستوانا فى الماضى . . كان أفضل . . حتى إننا نعجب الآن بالأفلام التى لم تكن ترضينا . . لقد حدث تدهور فى مستوى الفيلم المصرى . . حصل انحدار . . أفلام أنور وجدى أراها

الآن . . تحفاً فنية . . استعراضية رائعة . . كل الأفلام القديمة أظهرت مدى تفوقنا الفكرى والإنتاجى . . نريد طفرة . . نريد انطلاقة . . عودة إلى الأحسن . . والأفضل . . ؟

■ ■ ■

س - وهل تراك راضيا عن هذه الرواية . . الآن . . بعد أن كنت رافضاً لها . . فى البداية . . !

جـ - نعم . . إنها لون لطيف . . مرح . . يرفه عن مرارة الحياة . . وقسوتها . . وهذا مطلوب الآن . . لإنعاش خلايا الفكر المتجمد . . الجاف . . !

مسرحية « أهل الكهف » :

س - قال الدكتور « زكى نجيب محمود » إنه يذكر . . أن أول قراءة جادة . . لأستاذنا توفيق الحكيم . . كانت « عودة الروح » ثم . . « أهل الكهف » . . والثانية . . كانت بمثابة زلزال ثقافى . . أحدث دويا فى حياتنا الفكرية . . ولم يترك منذ ذلك الوقت . . أية محاضرة عن هذا الكتاب إلا وسعى إليها . . وهو يقول أيضاً . . إنه منذ صدور « عودة الروح » و « أهل الكهف » . . وهو يعيش فى « ظل توفيق الحكيم » . . كيف كان ذلك . . ؟

جـ - كان د . زكى نجيب محمود - يشترك مع المرحوم أحمد أمين فى نشاط لجنة التأليف والنشر . . وكان عليه . . الجانب الأكبر من العمل . . ولمشغوليات أحمد أمين - فى التأليف . . والمراجعة . . والدراسة . . والقراءة . . وقع العبء الأكبر فى تأليف الكتب . . والتى ظهرت وعليها اسم د . زكى نجيب محمود - وأحمد أمين . . على د . زكى محمود وحده . . ومنها قصة « الفلسفة عام / ٣٦ - وقصة الأدب فى العالم . . عام / ١٩٤٢ - وهما كتابان لهما قيمة كبيرة فى الأدب الحديث . . ولانزواء د . زكى نجيب محمود . . لم يعرف الناس . . إنه العالم الكبير . . الذى بذل جهوداً مضنية فى هذين العملين

الكبيرين . . وأعتقد أن دور « أحمد أمين » لم يكن إلّا للمشاركة فقط . . ومن هنا . . كانت قراءته لعودة الروح . . ثم أهل الكهف . . إذ أنه كان قارئاً نهماً . . ويطلع على كل ما ينشر فى ذلك الحين .

■ ■ ■

س - كتبت أهل الكهف فى عام ٣٣ . . عندما كنت نائبا فى الأرياف . . . كيف ظهر هذا العمل إلى الوجود . . وما ملابساته . . ؟

جـ - كنت أكتب . . وأضع أوراقى فى درج مكتبى . . يوماً بعد يوم . . ولاحظ ذلك . . صديقى القاضى « طاهر راشد » فطلب منى قراءة ما أكتب . . فقدمت له أعمالى الثلاثة - عودة الروح - أهل الكهف - وشهرزاد - وأعجب بها جداً . . وطلب منى أن أنشرها . . ولكن الظروف شاءت أن تخرج إلى القراءة فى عام / ٤٧ - على كل حال . . كانت الطبعة الأولى من أهل الكهف - مائة نسخة فقط .

وكانت وسيلة إقناعى . . عندما أخبرت صديقى أننى لا أقوى على النشر . . وأن طبع الكتاب الأول لم يكلفنى سوى / ٣٦ جنيها فقط - ولأننى كنت كثير المأموريات كلما حدث حادث فأترك دمنهور إلى حيث تكون المخالفة . . أو الحادثة أو الجريمة . . وكان الأجر الإضافى لأى مشوار هو ٣٠ قرشاً - وحسبتها - معنى ذلك . . أننى أستطيع أن أوفر ٦ جنيهات ،

وهى متوسط هذا الأجر كل شهر . . يعنى الحكاية ألا أقربها ٦ أشهر . . وأجهلها . . فتكون هى تكاليف أهل الكهف . . وقد كان .

■ ■ ■

س – فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ – كتب طه حسين . . يقول إن قصة أهل الكهف حادث ذو خطر . . وإنها قصة يمكن أن يقال إنها رفعت من شأن الأدب العربى . . وأتاحت للحكيم أن يثبت للآداب الأجنبية الحديثة أنها أول قصة وضعت فى الأدب العربى . . أما أن القصة مصرية . . أو أوروبية . . فليست مصرية خالصة . . ولا أوروبية خالصة – ولكنها مزاج معتدل . . بين الروح المصرى العذب ، والروح الأوروبى وموضوع القصة لم يخترعه الكاتب . . وإنما استكشفه وفرق ظاهر . . بين الاختراع فى الأدب . . والاستكشاف ، ولعل الاستكشاف يكون أصعب فى كثير من الأحيان من الاختراع . . وموضوع القصة . . موجود فى القرآن الكريم . . وكان معروفاً فى القصص المسيحة التى لها حظ التقديس . . ؟ فما هو الجديد الذى أضيف لهذا الاستكشاف والذى أحدث زلزالاً فى الفكر العربى . . حين صدوره فى عام ١٩٣٣ . ؟ ولماذا اختيار هذا الموضوع بالذات . . ؟

جـ – حملنى على ذلك . . الرغبة فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى . . ونحن نعلم أن المأساة الإغريقية أساسها « القدر » . . هو ذلك النضال الهائل بين الإنسان والقدر . .

أما أساس المأساة المصرية كما أتصورها فهى « الزمن »

وأساسها . . ذلك النضال الهائل بين الإنسان . . والزمن . . وإذا ما قرأنا . . « كتاب الموتى » نحس ذلك على الفور . . عند الإغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين . . هو « الزمان والمكان » لكل من الشعبين . . « تنين » مخيف . . كتب على الإنسان قتاله ؟

والفلسفة الدينية - دائماً . . هى الأمل فى انتصار الروح على الزمان والمكان . . فعلاً . . هى فكرة من أفكار مصر الثابتة . . ولدت فى العهد الفرعونى الوثنى الأول . . فهل تزايلت مع العهد المسيحى أو العهد الإسلامى . . كلا لم تتزايل . . إن قبول اعتناق المسيحية أو قبول الإسلام ديناً - هو من أجل فكرة « البعث » فالبعث هو نشيد مصر الخالد . . يغنيه النيل فى كل عام - والنبات والطيور . . والسماء والشعراء . . . ؟

أيضاً . . كنت مؤمناً بفكرة أخرى . . وحى . . « قوة القلب» بغير قوة القلب . . أى قوة الإيمان والحب . . وهذا ما قامت عليه فكرة المسرحية . .

■ ■ ■

س - الحوار فى هذه المسرحية يتخذ شكلاً هندسياً . . رومانسياً . . تتمازج فيه الأصالة التاريخية . . والأصالة الدينية . . بنفحات رقيقة من الشفافية والقدسية . . والفن . . كيف أمكن إبداع هذا الخلق الفنى . . ؟

جـ - فعلاً . . كانت وسيلتى الوحيدة فى إبراز فكرة هذه المسرحية . . هى « الحوار » الحوار . . ذلك القالب الذى أحبه من بين قوالب الأدب . . ومع ذلك . . أليست القصة التمثيلية أحياناً . . شكلاً من أشكال الأدب . . لها كيان منسق كالقصيدة . . والصورة والهيكل الهندسى . . ذات جمال فى التركيب . . وتناسب فى الفكرة . . يوحيان باللذة الفنية لذاتها . . إن التمثيل أحياناً . . إن هو إلا مجرد تفسير - وليس ضرورة - أو غاية - أو . . إتماماً للقصة التمثيلية . . ! إن مآسى «سوفوكليس» ودرامات « كاليداسا الهندى » وفاوست تأليف «جوته » لهى كلها أدب صراح . . تدخل على النفس بمجرد قراءتها . . لذة فنية كاملة . . بغير حاجة إلى مسرح . . ولا ممثلين . . كما أننى كنت أود أن أدخل الكورس . . فى قصة أخرى . . وروح أخرى . . مستمدة من كتاب الموتى . . وأوراق البردى . . نعم . . إن الكورس الذى أسمع همسه الغريب وآهاته المتقطعة . . ونوحه المخنوق . . ثم هدوءه العميق . . ثم نهوضه . . وصياحه . . وإعلانه الانتصار . . لهو شىء بعيد عن المسرح . . قريب من المعبد . . عسير على الكلام تفسيره . . مستطاع للموسيقى وحدها . . التعبير عنه . . !

■ ■ ■

س - تماماً كما صورتها فى مسرحية « إزيس » . . ؟

جـ - فعلاً . . فعلاً . . المعبد . . الكورس . . المراسم

الدينية . . فالكورس والرقص الدينى . . الذى عزا إليه « نيتشه » أصل التراجيديا الإغريقية إنما يرجع إلى أصل أقدم منه . . وهو . . « التراجيدايا المصرية القديمة . . ! »

■ ■ ■

س – ونحن مازلنا نتحدث عن « أهل الكهف » بقى سؤال أخير . . لماذا تعيد كتابة « أهل الكهف » للطفل . . وهل يستطيع الطفل أن يستوعب مثل هذه الحكمة العميقة . . حكمة الحياة والموت ، الزمان والمكان ، البعث والخلود . .؟ أو تؤيد ما قاله شيخ القصة العربية تيمور – « إن أستاذ القاص . . هو الطفل . . ذلك الطفل المدرك الواعى . . فالطفل هو الحكم الأول على نجاح العمل الأدبى . . »

جـ – لقد صدق تيمور . . وأدرك بالفعل . . أن الطفل هو المتلقى الذكى . . الذى يمكنه أن يستقبل أفكارك بالتشوق . . والتطلع . . والاندهاش . . كيف كانت تشدنا القصة . . ونحن أطفال . . كيف كانت تستهوينا المغامرة . . وكيف كانت تشدنا . . ؟

إن الفكرة عندى . . ليست أن أكتب للأطفال ما يخلب عقولهم . . ولكن الفكرة أساساً هى . . أن أجعلهم . . يدركون ما فى عقلى . . فلقد خاطبت بحكاياتى الكبار . . وأريد أن أخاطب بها اليوم . . الصغار . . ويكفينى ما لقيت فى طفولتى . . من عدم وجود من يفهم عقليتى . . ومن يتجاوب مع مشاعرى . . وتفكيرى . . !

س - أعتقد أنك قد وجدت . . . ؟

جـ - من . . ؟

س - الأسطى حميدة الإسكندرانية . .

جـ - نعم طفل يجد نفسه بين الكبار . . واليوم أريد وأنا كبير . . أن أجد نفسى بين الصغار . . !

مسرحية « يا طالع الشجرة » :

س - يلاحظ أن الحوار هو العمود الفقرى فى البناء المسرحى للحكيم . . لماذا التركيز بالذات على « الحوار » ؟

جـ - إننى أحب هذا اللون من الأدب . . وهو « أدب الحوار» ففيه أجد نفسى . . وأحاور نفسى . . وأناقش نفسى بأفكار . . وتساؤلات وقضايا . . لا يستوعبها إلا الحوار . . !

■ ■ ■

س - يلاحظ أيضاً . . أن مسرحيات الحكيم . . مثل « شمس النهار » . . و « الطعام لكل فم » يغلب عليها « التفاؤل » أو النزعة التعليمية أكثر من الفن المسرحى . . كما يلاحظ أيضاً . . أن الحكيم . . قد آثر أن يعالج المطلق من المعانى . . والأفكار الخالدة . . غير المقيدة . . بالزمان . . والمكان . .

جـ - أولاً . . المسرحيات التعليمية . . فى الأدب والفن . . اعتباراً من « كليلة ودمنة » . . إلى حكايات « لافونتين » إلى

مسرحيات « بريخت » وغيرها من آثار هذا النوع . . إنما تهدف إلى توجيه السلوك الفردى . . أو الاجتماعى . . وهى فى أحيان كثيرة . . لا تخفى مقاصدها . . وتتخير من العبارات . . ما يصل توا إلى النفوس . . ويرسخ فى الأذهان . . وتنتقى من وسائل التعبير . . أوضحها . . وأبسطها . . وتتخذ أحياناً من الحكمة والمغزى – فى صورة مباشرة – سلاحاً من أسلحتها . . وهى على خلاف الفن الآخر . . الذى يخفى وجهه . . ويدعك تكتشف ما خلفه . . تكتشف هى القناع . . وتقول لك : « نعم . . أريد أن أعظك . . فاستمع إلى . . » وإزاء هذه الصراحة . . منها . . نصغى إليها راضين . . وهكذا أصغينا . . ومازلنا نصغى إلى حِكَم « كليلة ودمنة » وعظات « لافونتين » ومسرحية بادن التعليمية لبريخت ، دون أن نضجر مما نسمع . . ذلك أن الوعظ فى ذاته « فن » ما دام قد قُدم إلينا . . فى شكل جميل . .

■ ■ ■

س – مسرح الحكيم . . هو « المسرح الذهنى » . وهى تسمية شاعت على هذا اللون التجريدى من ألوان الفن الدرامى . . وشخصيات مسرح الحكيم . . تقوم أساساً بين الأفكار المجردة . . وليس بين شخصيات حية . .

كيف تعلل ذلك . . ؟

جـ – أولاً . . هناك مسرحيات لاقت نجاحاً لم تظفر به أى مسرحية متفائلة . . مثل « مسرحية الطعام لكل فم » . . مثل . .

« يا طالع الشجرة » فليس إذن التفاؤل أو التشاؤم . . وليس هو «التجريد » أو « التجسيد » هو العامل فى نجاح المسرحية . . واجتذاب الجماهير . . فليست هناك قاعدة . . بين الرمزية . . أو التجريدية . . ولكن هناك مسرحية . . تقدم فكرة معينة . . وبوسيلة معينة . . يمكن بها جذب وشد انتباه الجمهور . . أولاً: نعرف أهداف المسرحية . ثم بعد ذلك . . نصنف المسرحية :

– المسرحية الكلاسيكية – الملتزمة . . التقليدية . . الترجيديا . . أو الكوميديا . . وهناك . . ما أسموه « بالكوميديا الدامعة » . . وهى المسرحية التى لا تخلو من الدموع . . بالرغم من أنها مسرحية كوميدية . . وهناك أيضاً :

– الدراما البورجوازية – وهى المسرحية الهادئة التى تميل إلى الاعتدال . . ولا تخلو أيضاً من الفكاهة الخفيفة . . فالفكاهة . . عنصر أساسى جداً . . فى أى مسرحية . .

■ ■ ■

س – يقولون إن أدب توفيق الحكيم – ومسرحياته بها شبه كبير من أدب (لافونتين) الذى يجعل من الحيوانات أبطالاً . . لقد فعل توفيق الحكيم . . ذلك مع الحمار فى « حمار الحكيم » والكلب فى « أهل الكهف » والسحلية فى « يا طالع الشجرة » والنمل فى « بيت النمل ». . والصرصار فى « مصير صرصار » إنك تصادق الأشياء . . كالثياب . . والعصا . . والبيريه . . وتطور معها حواراً . . بمفهوم فلسفى . . وفكر . . يرقى عن فكر مصادقة الانسان . . ؟

جـ - أقول إن مخاطبة الأشياء . . بحوار هو مخاطبة مع النفس . . والحوار يكون نابعاً وعائداً إلى النفس . . أى أننى أحاور فكرى . . وأتخيل الأشياء شخصيات ملموسة . . محسوسة يمكنها أن تخاطب الفكر . . وجعلت من العصا . . ابنة لى من الخشب . . أحادثها . . وتحادثنى . . فهى التى عاشت معى خير سنوات عمرى . . منذ عام / ١٩٣٠ - لم تفارقنى لحظة . . ولو كانت ابنة من دم ولحم . . لفارقتنى إلى بيت زوجها . . ولكنها هى . . لم تفارقنى منذ أن كنت وكيلاً للنيابة فى طنطا . . وأنا إنسان مخلص لأشيائى التى عشت بها . . وعاشت معى . . فالأشياء لها بقاء . . ولها وفاء . . ؟

■ ■ ■

س - يا طالع الشجرة . . هل هى من الفن الحديث . . أم هى من المسرح الرمزى . . أو مسرح اللامعقول . . كيف كتبتها ؟ وعلى أى أساس من المذاهب المسرحية . . كان تخطيطك الفكرى لها ؟

وكيف قوبلت من آراء النقاد فى الخارج . . ؟

جـ - أولاً . . لقد كتبت هذه المسرحية وفى ذهنى أنها شىء مستحدث . . أخذته عن الفكر المبتكر . . أو - المسرح الجديد - المتحرر من الواقعية . . ويمكن أن أسميها بالفعل : «اللاواقعية الشعبية الفكرية» ولكن . . أليس من التناقض الجمع بين الشعبية والفكرية . . ؟

هنا الفن الحديث كله . . فى جوهره الحقيقى . . لا يريد محاكاة الطبيعة . . أو الواقع المنظور . . إنه يريد خلقاً مستقلاً من ذات فكر الإنسان و « توليفاته » . . و « تفانينه » إنه يريد أن يقول شيئاً عندما لا يقول شيئاً . . ؟

■ ■ ■

س – ما معنى هذا الكلام الذى بنيت عليه مسرحيتك :

يـا طالـــع الشجــــــرة هــات لـى معـــاك بقـرة .
تحلــــب وتسقينـــــــى بالملعقــــــة الصينــــى .

جـ – لا معنى له . . إلا أن يكون « توليفة جديدة » . . أجيال من الأطفال رددوه فى القرية . . وكنت أنا منهم . . ولانفهم معنى هذا الكلام . .

إذن هو تراث . . مثل « ألف ليلة وليلة » . . التى شكلت الجن . . والعفاريت . . شىء متوارث . . وهناك شىء خفى فى الكلام . . يمكن أن يعمق منطقه . . هذا الشىء الخفى . . وهذا هو الفن الحديث . . الذى كانت وسيلته . . التجرد أولاً من المعنى والمنطق . . فأصبح التصوير . . مجرد « بقع لونية » والنحت « بقع كونية » والموسيقى « بقع صوتية » والشعر « بقع لفظية » وكلمة البقع هذه . . تعبير عن انطباعى الشخصى . . وينتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أو بالآذان . . دون أن يمر بالعقل . . وكان المسرح فى عشرينيات هذا القرن . .

منذ أربعين عاماً . . قد بدأ يلتفت فى دهشة إلى المجدد الإيطالى «بيراندلو » وكنت أنا من أوائل مشاهديه فى باريس . . وأذكر جيداً . . كيف استقبل بذلك الاستغراب والاستنكار . . والنقاش والجدل . من خاصة المثقفين فى مسرح طليعى صغير . . !

والمسألة فى غاية البساطة . . لما رأيت أن هناك فى أوروبا . . مدرسة . . تسير على هذا النمط . . لم أعرها اهتماماً فى أول الأمر . وقلت إنها « موضة » من الموضات . . تأخذ وقتها . . ثم تزول . . ولكن فى الواقع أنها كانت تمثل عندهم فكراً . . وهو . . أن الحياة . . « عبث » وأن هذا العبث لا يعرفون له حكمة . . ولا منتهى . . وإنما هى تضاربات . . وتقلبات غير مفهومة . . وما دامت الحياة غير معقولة . . وما دامت الحياة غير مفهومة . . إذن . . فهى . . « عبث » والأسلوب نفسه . . يصبح « عبثاً » لأنه غير منطقى . . وفى الحقيقة . . أننى لم آخذ بهذه النظرية إطلاقاً . . لأن فى عقيدتنا . . وفى ديننا . . أن الله . . لم يخلق هذا العالم عبثاً . . بل لحكمة يراها . . وهذه الحكمة هى الأساس فى الخلق المتناسق المعقول . . من الله . . ولمن يتعمق فى الدراسة والبحث من البشر . . فإنه يدرك تماماً . . أنه مبنى على منطق . . وعلى علم مدروس تماماً . . ويدرك تماماً . . أنه مبنى على معقولية ومنطق دقيق جداً . . سواء فى العلم . . أو فى الغايات ولكن النظرة الظاهرة لبعض الناس . . من حوادث . . وسياسات . .

ومن تصرفات بعض البشر . . تبدو أنها غير معقولة . . ولذلك فإن العبث هو : « نظرية لنوع من الناس . . نظروا للخليقة نظرة تدل على أنهم لم يفهموا الغرض منها . . وليس خلق الله . . متفقاً تماماً مع مفهوم البشر . . فالخالق ينظر إلى الخلق فى زمان . . ومكان . . ليس لهما حدود . . نظرة « لا محدودية » ونحن . . ما نحن إلا بشر . . من خلق الله . . كل شىء عندنا على قدر عقلنا المحدود . . فكل شىء عندنا . . والمنطق العقلى لنا . . له بداية . . وله نهاية . . وله مسافة . . محدودة . . من هنا كان التناقض . . بين نظرة الإنسان . . ونظرة الله . . لأن نظرة الله . . غير محدودة . . لا فى الزمان ولا فى المكان . . . إذا وجد إنسان . . يستطيع أن يقيس مسافة حجرة . . فإنه يستطيع أن يقيسها - بمتر . . أو بذراع . . وعلى هذا يمكنه أن يقيس طول الحجرة وعرضها - وهذا مقياسه - إنما الله . . فالمقياس عنده . . ليس بالمتر . . ولا يقاس . . لأنه ليس لديه حجرة واحدة . . أو حجرات . . إن عنده « الكون » الكون كله . . والكون يسير فيه الضوء نفسه بمالا نهاية له من الزمن . . والاتساع . . فإذن . . ما يفعله بالحجرة فهو الإنسان - يقدر ويقيس على أساس حجرة - أو حجرات بالمنزل . . هذا هو ما يدركه . . أما الخالق . . فهذه الحجرة عنده لا تساوى واحداً فى المليون فى خلية من خلايا الجسم . . !

نحن مقياسنا أهداف . . وغايات . . ملموسة . . ومعقولة . . محدودة بالزمان والمكان . . إنما الله يخلق كل هذا فى

مقاييس لا نتصورها . . فإذا تصورنا . . أن المجموعة الشمسية - التى نعتبر نحن ككائنات حجرة واحدة فيها - وحدة من مجموعات وشمسية تعد بالملايين . . وكل هذا . . صنعه الخالق . . وصنفه الخالق . . وكأن هذه الذرة . . هى المقياس بها . . وهذا . . لا يمكن أن يكون مقياس البشر . . إذن : «العبث جاء من أنهم لا يدركون أبداً النسبة ما بين الأشياء . . كما نتصورها نحن . . وكما يتصورها الخالق . . الخالق يصنعها من وراء الحجب . . وهم يحكمون على الأشياء . . ونظرتهم فى هذا يعبرون بها عن هذا العبث . . بتعبيرات عبثية . . !» .

لم أنظر للكون . . على أنه عبث . . بعض الناس الذين قرأوا المسرحية - نظروا على أنها - فنية - هو يقول « عبث » ولكنها منطقية . . بل أكثر من المنطق . . المسار هو عدم التقيد بمنطقية التركيب المسرحى . . والحوادث بها - تسير لزمان معين . . ومكان معين . . والشخص الواحد بها . . يوجد فى مكان واحد . . وفى زمن واحد . . وتصور أن هذه المسافات . . ليست كذلك . . إن الشخص الواحد . . يوجد فى مكانين مختلفين - هنا اللامعقول - تطلعات خيالية . . لا معقولية فى التركيب » فى المضمون . . عبث . . لماذا أسميتها « يا طالع الشجرة » كلام غير معقول ، كانوا يقولونه الأطفال . . غير منطقى . . كلام غير مرتبط عقلياً- ولكنه مرتبط فى تراثنا . . عند الأطفال كنت أقولها وأنا طفل . . كيف تكون البقرة فوق الشجرة . . الغنوة تغنى . . ولا أحد ينظر إلى لا معقوليتها . . !

- هى الحكاية . . كده . . أساطير قديمة . . وموروثات هم أخدوها مننا . . الغرب أخدها مننا . . وليه احنا ما نعملش حاجة من تراثنا . . درويش فى القطر . . ينزل . . يلاقى الراجل اللى اختفت مراته . . لم تعد من ٤ أيام . . المحقق يسأل :

- وما جاتش ؟

الزوج يجاوب بلا معقولية فى الحوار . . يتكلم فى مسألة . . ليست لها أى صلة فى اختفاء الزوجة . . يقول إنه مغرم بشجرة برتقال فى الحديقة . . لو شافت الشجرة دى سماد جثة آدمى . . ممكن تطرح فى فصل واحد . . أشياء غير معقولة . . بطيخ . . أو أى حاجة . . عشان السماد آدمى . . المحقق منطقى . . قال . . ده قتل مراته . . فعلاً ده قتل مراته . . وفيه درويش . . وما دام ده مش معقول . . يبقى أنا بعمل زى ألف ليلة وليلة . . الدرويش . . والجن . . أصبح جزءاً من التراث . . استبعدت فكرة العبث . . هم أخدوها مننا . . لكن العقيدة الدينية . . إيمان . . لم أتعرض له . . إن الكون معقول . . وكل ما يحدث لنا . . له عقل . . وله غاية . . غير منظورة . . الغيب . . ما نشوفهوش . . الغريب لو شفناه . . ننتحر . . لو اطلعتم على الغيب لرضيتم بالواقع . . أؤمن بالغيبيات . . شىء ما نعرفهوش . . ولكن الله . . يعرفه . . لو عرفنا الغيب . . نبقى زى ربنا . . أستغفر الله . . !

ليه ما نصدقش أن كل اللى يجيبوا ربنا خير . . لمَ لا نرضَى به . . لمَ لا نرضَى بالواقع . . لا نتعرض لمخلوقات الله .

المهم . . قبض على الزوج . . بتهمة إنه سمد الشجرة بجثة مراته . . المحقق قبض عليه . . وأمرهم يفتحوا تحت الشجرة . . لم يجدوا أى شىء . . !

وعادت الزوجة . . وأدركت أن البوليس قد حبس زوجها قالت : لماذا ؟ ده احنا كنا سعداء . . راحت للبوليس . .

قالت : أنا مراته . . افرجوا عنه . . ازاى يقتلنى وأنا حية . . أنت تسجن واحد عشان الخرافات . . عشان لما بيقول إنه يحط سماد جثة آدمى – بقى ده معقول ؟ حدث تصادم . . المحقق بنى على المنطق . . يسجن واحد لمنطق غير معقول . . بقت كوميديا . . ده كلام فارغ . . طلع كمحقق عقلانى . . أنه وقع فى اللامعقول كأدلة . . غير معقولة . . وهى . . طلعت معقولة . . عقلته . . وهنا . . تصادم اللامعقول بالمعقول . . وهى ليست معقولية بتاتاً . . !

مسرح اللامعقول والواقع :

س – هناك سؤال . . يتأرجح فى هذه المتاهة اللامعقولية . . وهو . . هل يُعَبر « أدب اللامعقول . . عن قضايا المرحلية . . وهل يستطيع مسرح اللامعقول . . وأدب العبث وفن السريالية أن يعبر عن قضايانا الواقعية . . كأزمة الإسكان . . والمواصلات . . والغلاء . . والفهم . . والطموح بالتصورات اللامنطقية . . ؟

جـ – الحركة « اللامعقولية » تعتمد على نقطة هامة . . وهى

أنه ليست هناك حقيقة فى هذا الوجود . . كى يكون هناك هدف . . كما أن مسرح العبث أو اللامعقول . . هو التعبير عن الواقع . . بغير الواقع . . والالتجاء إلى اللامعقول . . واللا منطقى فى كل تعبير فنى . . وهذا ما نراه واضحاً فى أكثر مسرحياتى . . مثل « الطعام لكل فم » ويا طالع الشجرة . . وأهل الكهف . . وشهرزاد . . وغيرها . . وهذا الفن . . هو فن أصيل لدينا . . واستخدمه القدماء عندنا حتى الفراعنة . . حينما رسموا الإنسان . . وله رأس ذئب . . وبأشكال غريبة . . وقصص أبى زيد الهلالى . . والزناتى خليفة . . ورسوماتهم تعبر عن هذا الفن بصدق . . ولنعود إلى . . الأساطير . . والقصص الخرافية . . وسنجدها عامرة . . بكل هذا . . فهى لا تمت للواقع إطلاقاً . . وإنما هى كانت مجرد أدوات وقنوات تنقل من خلالها الأفكار والمفاهيم بالأسلوب اللامنطقى . .

وإننى قد خضت هذا اللون من الأدب . . لأننا يجب ألا نتخلف عن الغرب فى شىء . . وهذا الأخذ أخذه الغرب عنا . . فلمَ لا نمارس حقوقنا فى تراثنا الأصيل . . والسؤال الذى تطرحينه الآن . . وهو : هل يستطيع هذا الأدب أن يجسمَ مشاعرنا . . وانتصاراتنا . . ومشاكلنا . . وقضايانا . . ويجسدها بأسلوبه الخيالى . . ؟

إنى أعتقد أنه من الصعب أن نعبر عن حقيقة بأسلوب اللاحقيقة . . وعن واقع بأسلوب اللا واقع . . وعن منطق

بأسلوب اللا منطق . . وعن معقول بأسلوب اللا معقول . .

■ ■ ■

س - ومازلنا نطرح أسلوب المعقول . . واللا معقول . . وما دمنا نثير هذه القضية . . ونتعرض لمسرحية « يا طالع الشجرة » بالذات . . نريد أن نعرف هذا التعارض الشديد . . ووقعه « غير المقبول » من عميد الأدب العربى . . د . طه حسين . . وعملاق الأدب « العقاد » فى حين أنهما قد مجدا من قبل مسرحية « أهل الكهف » وقالا عنها إنها ثورة وزوبعة - وزلزال فى تاريخ الأدب المسرحى العربى . . ؟

جـ - الحقيقة . . أنه لا طه حسين . . ولا العقاد قد اعتادوا على قراءة مثل هذا اللون من المسرحيات . . هما لم يقرآ إلا الكلاسيكيات . . التى لها منطق معين . . تسير عليه . . والحوار الذى له منطق . . متناسق . . فطه حسين . . حين لم يجد الرواية تقرأ بالمنطق المعتاد فى المسرحية المنطقية . . لم يهضمها . . وكانت عملية إنصاف للحق والتاريخ . . ولم يكن هناك أى شىء أكثر من ذلك الذى يأكل طعاماً غير معتاد عليه . . ليست إلا طريقة إنسان لم يشعر بالألفة . . على شىء اعتاد عليه . . وهى طريقة كانت غير مألوفة له . . ولا لبعض القراء الذين اعتادوا أن يقرأوا المسرحية . . التى لها مضمون . . أولها . . حوار مقبول للذوق العام . . هذا هو السبب ولم يكن هناك تحامل أو سوء قصد . . بل عدم احتمال وتقبل . . وهضم ما ليس مألوفاً فى الطعم . . مثل مسرحية « يا طالع الشجرة » أما العملاق عباس محمود العقاد

. . فقد آخذها بفلسفة عقادية . . فبمجرد أن قيل له . . إن هذه المسرحية من « مسرح اللا معقول » . . حتى قال فى شىء من السخرية :

– هوه احنا انتهينا من المعقول . . حتى نبحث عن اللامعقول . . ؟

– هذا كل ما فى الأمر . . صُدِمَا كلاهما . . أو كان وقع هذه المسرحية مجافياً لما رسب بعقليهما من روعة « أهل الكهف . . وشهرزاد » . . وهما المسرحيتان اللتان تتقاربان من ذوق . . وتذوق . . عملاقى الفكر . . والأدب . . !

أما صدى هذه المسرحية بالخارج . . فقد كان عظيماً . . ويكفى ما أرسله « مسرح الأتيليه » فى باريس . . من تقدير . . قمت سيادتك بترجمته . . فإنهم لم يقيموا العمل على أنه « عبث » أو لا معقول . . بل كان التقييم على أساس أنه من التراث العربى . . وأنه يمثل فكر الجاحظ ، وهو فكر عربى أصيل . . نابع من منبعه الأصلى . . ومن تقاليده الشرقية . . بحيث يعتبر مثالاً للأصالة . . والتجديد معاً . . !

المسرح المنوّع ومسرح المجتمع :

س– فى مجلدين كبيرين . . نرى على غلاف أحدهما عنوان « المسرح المنوع » . . ونرى على غلاف الآخر . . عنوان : « مسرح المجتمع » . .

لمَ لَمْ تجمع هذه الأعمال كلها فى مجلد واحد .. وهل هناك فرق ملحوظ بين مجموعة مسرحيات « المسرح المنوع » ومسرحيات « مسرح المجتمع » .. وماذا يميز .. أو يفرق كل مجلد عن الآخر .. وماذا دعاك إلى هذا العمل المميز ..؟ مع ملاحظة أنه يجمع بين الحوار باللغة الفصحى .. واللغة العامية ؟

جـ - المسرح المنوع .. يجمع بالفعل بين الفصحى والعامية .. أما « مسرح المجتمع فقد حرصت أن يكون الحوار كله بالفصحى العامية .. أو العامية الفصحى .. ومسرحيات المسرح المنوع مسرحيات منوعة فى أسلوبها .. وفى أهدافها .. ففيها الجدى .. والفكاهى .. وفيها ما كتب بالفصحى .. وبالعامية .. وفيها النفسى والاجتماعى والريفى والسياسى .. ونحو ذلك .. ! فى عشرين مسرحية .. !

وقد تناولت فيها كل العصور .. وأنشأت مسرحيات مستلهمة من المسرح الإغريقى .. مثل .. « أوديب » وبراكساجورا - وبيجماليون - ومسرحيات مستهلمة من القرآن مثل « أهل الكهف » و « سليمان الحكيم » .. ومن ألف ليلة وليلة .. مثل شهرزاد .. ومسرحيات مستلهمة من مجتمعنا المعاصر .. مثل « مسرح المجتمع » ثم مسرحيات مستلهمة من مختلف المشاعر والبيئات .. كما هو موجود فى « المسرح المنوع » .. !

والمجلدان .. يعتبران رحلة فى كل نوع .. فهناك مسرحيات

جديدة . . فلسفية . . كما توجد مسرحيات فكاهية . . واجتماعية . . ونفسية . . وسياسية . . وكل هذا التنويع . . من قبيل المحاولة المجنونة . . القلقة لسد فجوة هائلة كان يجب أن تملأها تجارب سلسلة طويلة متصلة من أدباء القرون الماضية . . فلو أن أدبنا العربى سار سيراً طبيعياً . . كغيره من الآداب العالمية . . فكان له قرنه السابع عشر . . والثامن عشر . . فى المسرح يحاكى « الكلاسيك » الإغريقى . . وكان له قرنه التاسع عشر والعشرون . . يصور المجتمعات الحديثة - لوفر ذلك على مثلى من الجهود المتفرقة ما كرسه وركزه فى نوع واحد بالذات . .

كما أن ارتطام أمثالى . . بمشكلات الفن واللغة . . وضع على كاهلى مواجهة الموضوع فى نواحيه المتعددة . . ؟

هذا عن « المسرح المنوع » أما مسرح المجتمع . . فهو يضم عشرين قصة . . فى تمثيليات عصرية . . منها ما يقع فى فصل واحد ، ومنها ما يقع فى منظرين ، ومنها فى أربعة فصول من واقع المجتمع . . وقد رأيت من الواجب على أن أسجل أحقاب قرون إزاء مسئوليتى الكاملة نحو الأدب المسرحى . . لم تلتفت إليها الأجيال السابقة على مدى قرون . . !

■ ■ ■

س - مسرحيات الفصل الواحد . . هل تعتقد أنها يمكن أن تحقق فكرة ما . . وهدفا ما فى تصوير المجتمع . . بحيث يمكن أن تغطى الفكرة كاملة . . كما فى المسرحيات ذات الأربعة أو الخمسة فصول . . !

جـ - يبدو بالفعل . . من تاريخ الآداب العالمية . . أن التمثيلية ذات الفصل الواحد كان لها فضل فى تصوير المجتمع فى أوضاعه العديدة المختلفة . . فقد استخدمها لهذه الغاية - موليير - ودى موسيه - وماريفو - وتشيكوف - وتورجينيف - وجوته - وشيلّر - وفرناندل - ووايلد - وشو . . فالعمل على إقرارها هنا - أيضاً فى الأدب العربى - لما يمكن لهذا الأدب العريق فى أساليب أدائه . . وينوع له فى وسائل تعبيره . . ! والدليل على ذلك ما يوجد فى « مسرح المجتمع » الذى يعلن رسالة الفكرة كاملة . . !

نشأة الأدب التمثيلى العربى :

س - كيف نشأ الأدب التمثيلى العربى . . ؟

جـ - الأدب التمثيلى باب لم يفتح فى اللغة العربية . . إلا فى العصر الحاضر . . أما فى البلاد العربية . . مثل سوريا . . ولبنان ومصر . . فقد وُجِدَ نوع من المسارح - منذ نحو قرن - يمتزج فيه الجد . . بالهزل . . والتمثيل بالغناء . . وقد نقلت إليه بعض قصص الغرب . . نقلاً تاماً . . أو غير تام تعرض فى ثوبها الأصيل . . أو فى ثوب يناسب الشرق . . أحيانا فى لغة فصحى . . وأحياناً فى لغة - تلائم أفهام العامة . . !

- وكان المنبع الذى يستقى منه المسرح . . فى ذلك الوقت . . هو الأدب الفرنسى . . والأدب الإنجليزى . . فرأينا البخيل «لموليير » تعرض بالزجل . . ورأينا « روميو وجوليت » لشكسبير . . تعرض بالألحان . . !

ولم يطمع أحد من كتاب المسرح أن يسمى عمله أدباً . .
ولكن الثورة المصرية . . وانبثاق الروح القومية . . دفعت كتاب المسرح إلى تمصير رواياتهم . . وفعلت أنا أيضا ، وكنت مؤلفاً لبعض الروايات المسرحية . . ودفع ذلك شوقى أن يقدم رواياته إلى المسرح . . فكان لها نجاح كبير . . ولكن . . كان هناك حاجز . . بين عالم المسرح وعالم الأدب . . وكان من الأمور التى تحير العقول . . وتحتاج فى تفسيرها إلى تعليل . . !

كانت القصيدة فقط هى التى يدفع بها إلى الصحف السيارة . . أو المطبعة . . أما القصة التمثيلية أو المسرحية فلم يكن لها وجود . . ؟

وفى أوروبا أدركت العلة . . أن عالم المسرح فى أوروبا . . وعالم الأدب مندمجان . . متداخلان ، لا فاصل ولا حاجز بينهما . . والقصة التمثيلية فرع من فروع الأدب تدرس فى المعاهد والجامعات على أنها أدب . . قبل أن يدفع بها إلى المسرح .

- إذاً فالأدب العربى . . كغيره من الآداب العريقة . . ولكن الطريقة التى ظهر بها المسرح فى الشرق العربى . . لم تكن على أساس . .

وبهذا الإحساس عدت إلى مصر . . وكتبت أهل الكهف عام ١٩٢٨ . . ولم يكن هناك مسرح ، بل كان مسرحى - بين دفتى كتاب - والذى قصدته من وضع أهل الكهف هو إدخال عنصر «التراجيديا » فى موضوع عربى - إسلامى - التراجيديا بمعناها

الإغريقى القديم الذى احتفظت به - وهى : الصراع بين الإنسان .. وبين قوة خفية هى فوق الإنسان .. وحرصت أن يكون منبعى - القرآن - لا أساطير اليونان ..

وقد تمكنت من إحداث التزاوج بين العقليتين .. الأدبيتين : أساطيرنا الإسلامية .. بعين « التراجيديا الإغريقية » .. !

فكر الحكيم

بين عهدين

« الكتاب .. والمفكرون .. هم قادة الإصلاح الاجتماعى .. وهم واضعو أسسه .. وخططه .. فى كل زمان .. ومكان .. ! »

« توفيق الحكيم »



فلسفة الحكيم الفكرية والإبداعية :

س - الجنين . . لا يولد فى الأضواء الباهرة . . وإنما فى وعاء مظلم صامت . . والفنان لكى يستعد لجنين الفكرة . . يجب أن ينقطع لها . . فى الصمت والظلام . . ما تفسير ذلك . . ؟

جـ - الأدب . . عبادة الصمت والتأمل . . الأدب فن . . فن منفرد . . فن الوحدة والعزلة . . ينكمش الأديب على نفسه . . فى أجواء الصمت والظلام . . والتعايش مع الفكر والنفس . . فتخرج إرهاصات فكره إلى النور . . مشعة مضيئة . . تنير ظلام الفكر من حوله . . ؟ إنها عملية « الخلق والإبداع » فكما أن المخلوق . . الجنين . . مستكِين فى صومعة من الظلام . . حتى يخرج إلى النور . . فهكذا جنين الفكر . . يتكون وينشأ . . وينمو . . ويتبلور فى الظلام . . حتى يظهر إلى النور . .

■ ■ ■

س - كل مفكر . . عاش حائراً فى سر الكون . . كل مفكر وأديب . . دائم الشرود والسرحان . . كل مفكر وأديب . . لابد له أن يخرج بفكرة معينة . . وتفسير معين . . من واقع فكره هو . . وفلسفته هو . . وتفكيره الخاص به هو . . والحكيم . . « راهب الفكر » ماذا

خرج من حصيلة فكره الطويل المدى . . وما قيمة فلسفته فى الكون . . والحياة . . والوجود . . والإنسان . . ؟

جـ - أولاً . . أنا لا أعتقد أننى قد اتجهت إلى الفلسفة . . ولكن كل مافى الأمر . . هو أننى أردت أن أبلور لنفسى - معتقداتى الفكرية - بطريق مباشر . . دون أن أقصد بوضع فلسفة محددة . . أو فكر محدد . . لأنى أعلم أن الفلسفة . . لا توضع وضعاً من مفكر واحد . . كما توضع القصة بقلم فنان واحد . . فالفلسفة - نتاج أذهان متعددة - تتداولها بالتعليق والزيادة . . والشرح والإضافة . . فى كل ناحية من نواحى النشاط الذهنى . . الفلسفة . . عمل جماعى . . لا عمل فردى . . كالفن . . وقد يكون الوضع الأول . . لفلسفة بعينها من عمل فرد واحد . . ولكنها لا تصبح منهجاً كاملاً . . إلا بمشاركة كثيرين . . فلسفة « أرسطو » مثلاً قد تناولها بعده فلاسفة كثيرون . . من أهمهم الفلاسفة العرب . . بالذات . . أمثال ابن سينا . . وابن رشد . . فنمت وازدهرت . . وتجسدت أفكارها . . وأصبحت لها تلك المتانة والمكانة . . وأننى بالفعل مغرق فى المطالعات الفلسفية . . وبدا لى أن أبلور معتقداتى الفكرية الخاصة بى . . أما السرحان . . فأعتقد أن كل مفكر يتوه فى بحار فكره . . وتأملاته . . ؟

■ ■ ■

س – ما معنى التعادلية . . فى فكر . . الحكيم ؟ وكيف يمكن أن نفهم هذا المضمون . . من صراعات الحياة . . وموقف الإنسان المعاصر منها . . ؟

جـ – أولاً ما هو معنى « التعادلية » الذى أقصده . . ؟ المعنى يقوم أساساً على نظرية « الفعل . . ورد الفعل » أى . . أن كل فعل . . لابد أن يعادله فعل آخر . . فى الاتجاه المضاد . . وكل قوة . . لابد أن . . تعادلها قوة أخرى . . وكلمة « تعادل » هنا . . معناها – تقاوم – أو – تقابل – فمثلاً كل ضعف أو نقص فى شخص . . أو شعب . . لابد أن تعادله أو تقابله قوة فى ناحية أخرى . . من ذات الشخص . . أو الشعب . . وقد سبق أن قلت إن كل شخص . . أو شعب . . يجد فى ذاته ضعفاً أو نقصاً . . عليه أن ينهض باحثاً عن القوة المعادلة . . أى المقابلة – الكامنة فيه . . لأن ضعفه . . أو نقصه ليس شيئاً نهائياً فى كيانه . . بل تعادله وتقابله قوة كامنة فى ناحية ما . . من ذاته . . عليه أن يكافح – ليعثر عليها . . فالنظرية كما ترى . . أبعد ما تكون عن السلبية – كما فهمت – وقد أوحت إلى بها . . الرغبة فى مقاومة اليأس عند الأفراد . . والشعوب الضعيفة . . وحثها على اكتشاف مراكز القوة المقابلة . . الكامنة فيها . .

■ ■ ■

س – ألا تعتبر مناجاتك للعصا . . نوعاً من أنواع الفكر المميز

لتوفيق الحكيم . . هذا الفكر الذى يمكن أن نسميه « خلقاً » وإبداعاً . . لقمة الفكر من مفكر . . ؟

جـ - يمكن اعتباره كذلك . . ولو أننى أرى أن مناجاتى لعصاى . . ومناجاتى لكل شىء حى . . وجماد . . يعتبر «مناجاة مع النفس » أو أنها . . « خواطرى » . . ؟

س - سوف نسير فى مناجاتك مع النفس . . مع من رأيت مناجاتهم . . حتى نصل إلى فكر الحكيم الحقيقى . .

إن عصاك . . تنفث الحكمة . . والعبرة . . والجمال . . حادثتها فى شئون الناس والفكر . . والمجتمع . . الأدب . . والشعر . . فكيف وجدت هذه المناجاة . . ؟

جـ - وجدت فيها راحة لنفسى . . لأننى لم أسأل شخصاً بعينه وأنتظر الإجابة منه . . بل إننى سألت وناجيت نفسى . . فلا يفهم النفس إلا النفس . . ولا يناجى النفس إلا النفس . . وخير صديق . . لفكرك - إنْ لم تجد من يضاهى فكرك ، ويتجاوب مع فكرك - هو نفسك . . فى هذه الحالة أكون راضياً ومقتنعاً بالرد على كل تساؤلات « العصا » أو تساؤلات فكرى . . ؟

■ ■ ■

س - وكيف تخيلت القدر . . ؟ وهل تؤمن به . . ؟

جـ - إيماناً أعمى . . نحن قدر . . والإنسان قدر . . ولا يستطيع فكر البشر . . أن يرقى إلى مستوى القدر . . !

فنحن مسيرون . . لا مخيرون . . وقد أوضحت ذلك تماماً فى أول كتاباتى الأدبية فى القصة . . وكتبت قصة « نصيب » وكيف أن القدر قد لعب لعبته . . بمهارة شديدة . . ليحدد مصير إنسان . . وفق ما يريده هو . . وما اختاره هو « القدر » . . وليس الإنسان . . وذلك لكى أثبت بالفعل بأننا ما نحن إلا «لعبة فى يد القدر » أو كرة يتقاذفها ويحدد مصير كل واحد منا بنصيبه . . بقدره . . وقد انتقى شريكة لحياته . . وسار متأنقاً لخطبتها . . ولكن . . القدر . . تدخل فى آخر لحظة . . لتصدمه سيارة . . وينقل إلى المستشفى . . وكانت تلك التى صدمته بسيارتها . . هى المرأة التى اختارها له القدر . . لتكون شريكة لحياته . . وليست تلك المرأة التى اختارها هو . . وكان ذاهباً لخطبتها . . وتكاتفت الخيوط . . لتربط ما بين الرجل والمرأة . . إنه القدر . . إنه النصيب . . !

وفى مناجاتى للعصا . . جعلت فكرى يتبلور ويتساءل عن تعريف « القدر » هذا المصير . . المحير . . المحتوم . . المختبىء فى عالم الغيب . . وتخيلت القدر أحياناً فى صورة رجل بارع . . وقف فى ميدان عام . . يحرك كفه فى الهواء . . ويعلب بكرات ثلاث . . كما يفعل الحواة . . وقد اجتمع من حوله الناس . . من مختلف الأعمار والأجناس . . كل قد اشرأب بعنقه . . يشاهد - فاغراً فاه - تلك الكرات تتراقص فى يد الحاوى . . وقد كتب على الأولى . . « المال » وعلى الثانيه « الصحة » وعلى الثالثة . . «راحة البال » . . ! وصاح القدر مزهواً فى الناس :

- أمَا مِنْ واحد منكم أيها البشر . . يستطيع أن يفعل مثلما أفعل . . !

فتقدم رجل . . ومد إليه يده قائلاً :

- أعطنى الكرات . . وأنا أفعل مثلما تفعل . . فأعطاه القدر ما طلب . . فما كاد الرجل يلعب بها . . وتستقر فى يده « كرة المال » وكرة الصحة . . حتى تسقط من يده كرة « راحة البال » .

فضحك القدر . . وضحك الحاضرون . . فتقدم آخر يتحدى . . فأعطاه القدر الكرات . . فلعب بها . . فإذا كرة المال . . تسقط من يده . . وتبقى معه « كرة الصحة » وكرة البال» .

فتقدم ثالث . . ورابع . . وخامس . . وهكذا . . دواليك . . ما من واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعاً فى عين الوقت . . !

وهنا . . صاح القدر فى الناس :

- كفى . . كفى . . لا تحاولوا بعد الآن . . إنه ليخيل إليكم أن هذا فى الإمكان . . ولكنه أمر مستحيل . . إن طمعكم . . وغروركم يعميانكم عن الحقيقة . .

- لا يمكن ليد إنسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه الكرات الثلاث . . !

■ ■ ■

س - إذن أنت تقول للإنسان بطريق غير مباشر . . إن القناعة هى سرسعادته وإن فى الرضاء بما قسم للإنسان من رزق . . هو بعينه قمة الغنى . . وقمة السعادة . . وإن القدر واقف لنا بالمرصاد . . لا يعطينا وفق ما نشتهى . . بل وفق ما قسم لنا . . ولكل إنسان قدره . . الصحة وراحة البال - أو المال . . والصحة . . ولا راحة للبال . . أى نصيب يرضى به . . شاكراً نعماء ربه . . !

جـ - هذا ما أردت قوله . . ولكن الإنسان بطبعه غير قنوع . . !

■ ■ ■

س - كان إيمانك شديداً بقول « إبسن » « الرجل القوى . . هو الرجل الوحيد » . . فهل الوحدة قوة . . ؟

جـ - الرجل الضعيف . . الخائف . . المذعور . . غير الواثق من نفسه . . ومن قدراته . . ومن قوة إرادته . . وقوة السيطرة على غرائزه وأهوائه . . الرجل الذى لا يستطيع إلا أن يحيط نفسه . . بجوقة - أو بطانة . . من التابعين . . يسير فى ركابها . . مدعيا الزهو . . والقوة . . والسلطان . . هو بلا جدال . . رجل ضعيف - رجل غير قوى . . فالقوة هى الاستغناء عن الناس . . والقناعة هى الاكتفاء الذاتى . . والقيمة هى احترام الإنسان لنفسه لشخصه . . لكيانه . . ومازلت عند هذا الإيمان . . ومازلت أردد كما سبق قول « إبسن » «إن الرجل القوى . . هو الرجل الوحيد » . . !

وإن التاج الذى يوضع فوق جبينى . . ليس فى مقدور يد صنعه غير يدى . . ولا جواهر تزينه . . غير الجواهر . . المستخرجة من كنوز نفسى » . . !

■ ■ ■

س – ماذا يمكن أن يميز الكاتب المنفرد . . المميز . . عن غيره من الناس . . هل جنوحه إلى العزلة . . وانطواؤه فى برج عاجى . . هو الذى يخلق منه ذلك الكاتب المفكر . . ؟

جـ – إننى لا أطلب من الكاتب حبس نفسه . . فلا يختلط أبداً بالناس . . ليكون مفكراً . . أو ليعيش فى صومعة فكرية . . بعيداً عن الناس . . وعن الحياة . . ولكننى أطلب من الكاتب أن يختلط بمن شاء بأجناس البشر . . لكن . . على نحو اختلاط الأنبياء . . الذين يأكلون فى الأسواق . . ويشاركون الناس كل ما فى الحياة . . إلا الصغائر والآثام . . فالكاتب قد يكون دائماً بين الناس . . وهو مع ذلك . . فى برج عاجى مرتفع . . « البرج العالى العاجى المرتفع . . ليس سوى نفسه البيضاء التى ترتفع عن الدنس . . إنه مع الناس . . فى التراب . . بجسمه . . لا بنفسه . . إنه يقاسمهم كل شيء . . إلا ضعفهم الخلقى . . والفكرى . . إنه مع الناس . . ليفهمهم . . ويرحمهم . . ويصورهم . . ثم ليرشدهم . . وليكون لهم القدوة . . والنبراس . . إذا فعل الكتاب ذلك . . فى كل عصر . . لكان للبشرية

شأن . . غير هذا الشأن . . إن مثلاً واحداً . . أنفع للناس من عشرة مجلدات . . لأن الأحياء . . لا تصدق إلا المثل الحى . . لهذا كان النبى الواحد . . بمثله الخلقى . . الحى . . وجهاده . . واستشهاده فى سبيل الخير . . أهدى للبشرية من آلاف الكتاب الذين ملأوا بالفضائل والحكم . . بطون المجلدات . . إن أكثر الناس يستطيعون أن يعيشوها . . لهذا كان الأنبياء قليلين ، وكانت حياتهم إعجازاً . . ؟

لذا . . فإننى أنادى وأدعو الكتاب . . إلى « البرج العاجى » . . بما فيه من صفاء فكرى . . ونقاء خلقى . . ذلك البرج الذى أحاول أن أجده . . فى الوحدة . . الوحدة المعنوية – أى الاستقلال . . والكمال . . والحرية » وأكرر بإيمان تام . . ما قاله إبسن « إن الرجل القوى . . هو الرجل الوحيد » .

الالتزام فى الأدب :

س – الأدب . . لا يلتزم . .

الأديب . . يلتزم . . ؟

ما هو الالتزام . . وكيف يلتزم الأديب . . بكتاباته . . فى حين أن الأدب . . لا يلتزم . . ؟

جـ – الالتزام فى الأدب . . والفن . . قديم . . بل وربما كان الأصل فى الأدب والفن . . أنهما ولدا مقيدين . . وأنهما لم يعرفا الحرية إلا فيما بعد . . فالشاعر فى المجتمع البدائى . . ولد ملتزماً

بالدفاع عن القبيلة . . مشيداً بفضائلها والفن والأدب والعلم . . كلها أشياء . . كانت دائماً فى خدمة الدين والدولة . . وأن مصر . القديمة . . ما عرفت إلا فى النادر . . ما يسمى بالثقافة الخالصة . . والفن للفن . . وأساس الحرية والالتزام . . واحد . . لم يتغير فى الماضى . . والحاضر . . وأن دوافع الالتزام والحرية هى بعينها فى العصور القديمة والحديثة . . ولو تتبعنا مواطن الفكر الملتزم فى عصرنا الحاضر . . لوجدناه فى عنفوان تألقه فى البلاد التى تقدس هى أيضاً . . الدولة . . والعقيدة . . وإذا كانت العقيدة الدينية آخذة فى الضعف فى بلاد الغرب . . فقد حل محلها - فى القوة والتمكن - العقيدة الاجتماعية . . أو المذهب السياسى . . فحيثما وجدنا اليوم شعوباً . . تدين كلها بدين اجتماعى جديد . . فى كنف « سلطان الدولة القاهر » نجد الفكر فيها . . ملتزماً . . بخدمة الدولة والدين . . ونرى . . أنه من النادر . . أن يتجه فيها مفكر . . أو أديب . . أو فنان . . إلى خدمة فكرة خاصة . . تعارض المذهب العام . . الذى اعتنقه الشعب . . والدولة . . وبالنسبة لى . . فإنه إذا طلب منى إبداء رأيى فيما ينبغى للأديب . . فإننى أقول . . بأن الأديب يجب أن يكون حراً . . لأن الأديب إذا باع رأيه ، أو قيد وجدانه ، ذهبت عنه فى الحال « صفة الأديب » . . فالحرية . . هى نبع الفن . . وبغير الحرية لا يكون أدب . . ولا فن . .

أما بخصوص ضرورة التزام الأديب . . وأن الأديب ملتزم . .

هنا . . يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان . . ويجب أن يلتزم . . وهو لا يشعر . . بأنه ملتزم . . مثله مثل «حمام الزاجل » ينقل رسالة . . وهو حر طائر طليق . . لا يشعر بقيد فى ساقه . . ولا بغلّ فى جناحه . . فإذا شعر الفنان لحظة واحدة . . أنه يؤدى بفنه ضريبة . . عليه أن يؤديها وجوباً . . فإن الذى ينتجه . . لا يكون فناً . . وإذا لم يشعر . . بأن الالتزام واجب . . وإنما هو شىء طبيعى . . شىء لو أرغمته . . على ألا يؤديه . . لعصاك وأداه . . لأنه جزء من طبيعته ، وتفكيره ، وعقيدته . . فإن الذى سينتجه مع الالتزام سيكون هو الفن .

فالالتزام المثمر للفنان . . فى رأيى . . هو الالتزام الذى ينبع من طبيعته . . والالتزام هو الحرية . . لذلك فإننى لم أقل يوماً لأديب أو لفنان – التزم – بل قلت . . وأقول : « كن حراً » ولابد أن يكون الفنان أو الأديب المثمر . . والأديب الحق . . وليد عصره . . وابن بيئته . . بغير ذلك . . يصبح الأدب أو الفن – شيئاً ضعيف الأثر . . ضئيل القدر . . بعيداً عن قضايا العصر . منعزلاً عن مصائر البشر .

■ ■ ■

س – وماذا عن توفيق الحكيم . . الأديب . . والفنان . . هل هو أديب وفنان ملتزم . . ؟

جـ – على الرغم من مناداتى بالحرية . . فإن عملى فى أكثر

كتبى . . هو من صميم . . « الأدب الملتزم » ولست أدرى . . أهذا راجع إلى رواسب ماضينا . . وتاريخنا القديم . . أم إلى طبيعتى الخاصة . . إنما الذى أعرفه فقط . . هو أننى منذ أمسكت بالقلم . . ما حاولت قط أن أنشىء لنفسى أسلوباً جميلاً . . يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة . . مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين . . هذا الفن . . للفن . . فى الأسلوب ما خطر لى أن أمارسه . . !

■ ■ ■

س – نفهم من ذلك . . أن الهدف من الالتزام . . كان أبعد من أن تلتزم بلون مميز . . أو أسلوب خاص بتوفيق الحكيم وحده . . وأن الأدب كان وسيلة . . لهدف . . لا لغاية . . ؟

جـ – لم أحاول أن أجعل أسلوبى . . ممتعاً . . لأننى أردت أن أتخذ من الأسلوب . . خادماً لأهداف أخرى . . غير مجرد الإمتاع . . هذه الأهداف . . كما ظهرت واضحة للناس . . كانت – قومية – وشعبية – وإصلاحية – فى « عودة الروح » وفى «عصفور من الشرق » وفى يوميات نائب فى الأرياف . . وفى «مسرح المجتمع » وكانت مذهبية . . متصلة « بمصير الإنسان» . . كما لم تظهر بوضوح . . لكل الناس . . خصوصاً فى « مصر » . . فى « أهل الكهف » وفى « شهرزاد » . . وفى « سليمان الحكيم » وفى «بيجماليون » وفى « الملك أوديب » أقول . . لم تظهر لكل الناس

. . لأن كثيرين منهم هنا . . لم يروا فيها . . أكثر من أساطير . . أخرجت فى إطار فنى . . والقليل أدرك أن الأسطورة لذاتها لم تكن هى المقصودة . . فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة كما كتبت « مجنون ليلى » لشوقى . . فأظهرت جمال الشعر . . والعواطف والشعور . . وأبرزت روعة الفن . . للفن نفسه . . وإنما كانت هذه الأساطير والقصص . . وسيلة. . لهدف آخر . . لا غاية فى ذاتها . . فلم يكن الغرض منها رواية « حادثة الكهف » أو حكاية « ليالى شهرزاد » بل وضعت كلها لخدمة قضية خاصة بالإنسان ومصيره . . قضية يعتنقها المؤلف . . ويبدو اتجاهها فى هذه الأعمال كلها . .

كما جاء فى صحيفة « النوفيل لترير » الباريسية . . هذه الملاحظة التى تلخص الرأى كله فى عبارة : « هذه المسرحيات العشر على تباينها . . فى نواحى الإلهام . . تكشف عن روح واحد يسيطر على المؤلف . . هو ذلك الاتجاه الملحوظ عنده دائماً إلى موضوع خالد هو : « عجز الإنسان أمام مصيره » . . !

إنها قضية الإنسان . . والآثار الأدبية والفنية . . تعيش فى كل العصور . . كما خلقها مؤلفوها . . ولكن تناولها بالبحث هى ملك لفكر هذا المتناول . . من حيث الإضافة . . والحذف . . والتبديل . . والخلق . . والابتكار . . لإبراز فكرة معينة . . أو قضية معينة . . وهذا من روح الكاتب وحده .

■ ■ ■

س - العلم والأدب . . كيف يخدم الأدب . . العلم . . وما دور كل منهما فى خدمة الإنسانية . . ؟

- لقد نجح رجال العلم فى الوصول إلى نوع من التحكم فى توجيه بعض قوى الطبيعة . . خدمة للإنسانية . . فهل يمكن أن ينجح رجال الأدب فى الوصول بالإنسان إلى درجة من الوعى . . والنضج . . والحكمة . . يستطيع فيها التحكم فى توجيه قوى نفسه . . ؟

جـ - نعود ثانياً . . إلى ما سبق طرحه . . وتحليله . . وهو أن فكرة الأعمال الأدبية عندى . . أحاول بها تحليل « مصير إنسان » وعجز الإنسان أمام مصيره . . ومصير الإنسان . . مرتبط عندى دائماً . . بجهاده أمام القوى غير المنظورة . . وعلى الإنسان . . أن يكافح لاجتيازها . . والتغلب عليها . . وأن استمرار نجاح العلم . . يزيد من الأمل فى نجاح الأدب أيضاً . . !

لقد عشت بفكرة الإنسان المقيم فى كهف مظلم . . كان الإنسان يخرج من كهفه . . أو سجنه . . فترده قوى معاكسة . . وكانت نهايات مسرحياتى تدل دائماً على أن المعركة لم تنته بعد . . والإنسان لم يسلم قط بالهزيمة النهائية . . مع إدراكه خطر القوى التى تقوم فى طريقه . . وتشده إليها . . وتجذبه . . كما تجذب الأرض التى تريد الانطلاق . . لذلك كان فرحى وتفاؤلى . . عندما رأيت جسماً قد نجح أخيراً فى التغلب على جاذبية الأرض . . والانطلاق حراً إلى الفضاء الواسع . . فالعقل

الإنسانى الذى استطاع التغلب على جاذبية الأرض لابد أنه يستطيع أيضاً التغلب على جاذبية الأرض الأخرى التى هى فى أعماق نفوسنا . . وتلك مهمة رجال الأدب . . علماً بأن مصير العلم . . والمعرفة . . مُعَلقٌ على استمرار السلام على الأرض . . وإذا كان هناك حراس للسلام . . فهم فى نظرى الأدباء ، فإذا كانت أقلامهم حرة . . فهم قوة مكثفة . . مؤثرة فى ضمير العالم كله . . !

وقد تصورت ذلك فى مسرحيتى « شهرزاد » فقد أراد الإنسان ممثلاً فى « شهريار » وقد نضج عقله . . وتضخم تفكيره . . وغرق فى تأملاته . . أن يخنق الإنسان فيه . . وأن يخلع عنه إنسانيته . . بما فيها من غرائز وحدود . . وأن ينطلق مرتفعاً . . ولكن القوة الدافعة . . لم تكن كافية . . فظل معلقاً بين الأرض والسماء . . ينخر فيه القلق . . وكان لابد له أن يعود إلى الأرض . . وإلا فهو ضائع فى الفضاء . .

وفى رأيى أن الإنسان سوف يظل إنساناً . . مهما ينطلق فى الفضاء ويذهب إلى الكواكب . لأنه بغير ذلك يفقد معنى حياته كلها . . إذاً فالجوهر الحقيقى للأدب لن يتغير كثيراً . . وعمل الأدباء سوف يكون دائما متصلاً كما كان - ويكون دائما - بهذه الإنسانية كل ما يجب أن يحدث من تغيير هو فى قوة الطاقة المطلوبة لإحداث الأثر الفعال فى الغرائز البشرية . . حتى لا تفلت منها عناصر مدمرة . . !

وربما . . يكون لهذا التقدم الهائل الذى وصل إليه الإنسان فى « التكنولوجيا » العلمية . . أثره فى تغير « التكنيك » الأدبى . . فى الأنواع الحاضرة فى الرواية . . والقصة . . والشعر . . والمسرحية . . ولابد أن يحدث هذا التغيير ليلائم الحياة الإنسانية كلها . . بين العلم والأدب . . !

■ ■ ■

س – فن الموسيقى . . والإبداع . . الفنى . . هل تعتقد أن هناك صلة بين العلم . . والموسيقى . . والفلسفة والموسيقى . . وماذا كان دورها الحقيقى فى الارتقاء بالفكر والفن . . والعلم . . والفلسفة . . قديماً . . وحديثاً شرقاً . . وغرباً . . ؟

جـ – كانت الموسيقى الشرقية فى الماضى . . صورة لنبض الشعب . . وكانت أغانى سيد درويش . . وألحانه الشعبية تسرى فى الناس . . كالنار فى الهشيم . . ولا جدال فى أن الثورة المصرية كان لها أكبر الأثر فى توجيه « سيد درويش » إلى الإشادة بالمفاخر القومية . . فى إطار من الصوت الصلب . . والعواطف الملتهبة . . والأداء القوى . . كما كان لهذه الثورة . . فضل . . فى كل ما اتسم به فن هذا الموسيقى . . من تجديد . . فقد خاض أعوامها . . شاباً متفتح القلب . . لكل ما تأتى به فى الأفكار والأحداث من جديد . . فى حين أن كهول الموسيقيين فى ذلك الوقت – من أمثال . . « كامل الخلعى » و « داود حسنى » . . ما

تأثروا بالثورة . . ولا أثروا . . وهل يستطيع أن يدرك أعاجيب الثورة . . أو يشعر بحرارتها . . إلا الشباب . . ؟ وبالنسبة لى . . فقد انكشفت لعينى . . وقلبى . . معجزة مصر عام ١٩١٩ - ورأيت الثورة فى كل مراحلها . . تسفر عن روح خفية . . وباقية أبد الدهر . . نابضة « تسعف مصر » بين حين وحين . . وظل هذا الشعور يلاحقنى . . حتى سجلته . . فى « عودة الروح» . . ومن المعروف أن الثورات . . لا ينطبع أثرها إلا على قلب جديد ملتهب ولا يملك هذا القلب إلا الشباب . . فى فورة شبابهم . . لهذا كان « سيد درويش » - ابن الثورة - هو قلبها الجديد الملتهب الذى تأثر بها . . وأخرج فنا . . قاد به الموسيقى الشرقية . . إلى أفق جديد . . ؟

أما تمازج الموسيقى بالفلسفة . . فهذا أمر . . يرجع إلى فلاسفة الشرق أو فلاسفة الغرب . . فهناك فيلسوفنا العربى «الفارابى » ومؤلفه . . وكتاب « الموسيقى الكبير » وكتاب «الأغانى » للأصفهانى . . وما جاء بكتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه . . وقوله فيه : « وزعمت الفلاسفة . . أن النغم فضل بقى من المنطق . . لم يقدر اللسان على استخراجه . . فاستخرجته الطبيعة . . بالألحان . . على الترجيع . . لا على التقطيع . . فلما ظهر . . عشقته النفس . . وحن إليه الروح » . . لذلك قال أفلاطون : « لا ينبغى أن تمنع النفس معاشقة بعضها بعضاً » . . ورأى أرسطو المنشور فى كتابه - السياسة - وقد أشار

إليه الفيلسوف الفرنسى « مونتسيكو » فى كتابه « روح القوانين » بقوله :

« إن أرسطو لم ينشىء كتابه « السياسة » إلا ليعارض أفكار «أفلاطون » ومع ذلك فهو يتفق معه . . بشأن قوة الموسيقى فى «الأخلاق » فلابد إذاً من الرجوع إلى أقوال « أرسطو » فى الموسيقى كما نشرت فى كتابه « السياسة » وقد ترجمه إلى العربية عام / ١٩١١ - أحمد لطفى السيد » . . ومما ترجمه عن هذا الكتاب فى الموسيقى قوله : نص كلام أرسطو - « نحن نسلم بالتقسيم الذى اتخذه بعض الفلاسفة بين الأغانى . . ونميز - كما فعلوا - بين الغناء الأدبى . . والغناء الحماسى . . والغناء الشهوى . . فى نظرية أولئك المؤلفين . . كل واحدة من هذه الأغانى . . تقابل لحناً خاصاً يجانسها . . وتمشياً مع هذه المبادىء . . نرى أنه يمكن أن يستخرج من الموسيقى . . أكثر من نوع من المنفعة . . إنها تصلح لتثقيف العقل . . وتزكية النفس معاً . . فإن الموسيقى يمكن أن تكون ترفيهاً . . وتستخدم لبسط العقل وترويحه من أعماله . . »

والموسيقى لا تقل فى روعتها عن الأدب . . بل هى الأدب . . وهى العلم . . والرحلة كبيرة جداً بين الموسيقى والعلم . . والموسيقى والأدب . . والموسيقى والفلسفة . . والموسيقى والمنطق . . وذلك مما جاء فى قول « ابن عبد ربه » : « زعمت بعض الفلاسفة أن النغم . . فضل بقى من المنطق » وقد مر بخاطرى

ماكنت قد قرأته وأنا فى باريس منذ ستين عاماً . . من أن «بيتهوفن من كبار المناطقة فى موسيقاه » . . وقد عجبت لهذا الوصف المنطقى . . وكما استطاع بيتهوفن أن يولد من اللحن الجاد . . فى الحركة الأولى . . فى سيمفونيته الخامسة . . لحناً راقصاً . . وهو ليس بلحن دخيل . . ولكن نفس اللحن الجاد تولد منه « منطقياً » ذلك اللحن الراقص . . كما يستطيع المنطق فى الأدب أن يولد من الفكرة الجادة « فكاهة » . . تماماً كما حدث عندى فى « أهل الكهف » بعد خروجهم من الكهف بذقونهم الطويلة . . واستقبلهم الملك استقبال القديسين . . وجعلت اهتمام أحد هؤلاء القديسين أن يذهب ليحلق ذقنه . . فهكذا تتزاوج الموسيقى بالفلسفة . . والمنطق والأدب . . والفن . .

النقد ورسالة الناقد :

س – النقد – ما هى رسالة الناقد . .

وما هو أسلوب النقد . .

وهل الناقد يعتبر مبدعاً . . مثل الأديب والقاص . . والكاتب . . ؟

جـ – مما لا شك فيه . . أن النقد . . « إبداع » والناقد مبدع . . وأسلوب النقد . . وأسلوب الناقد فى النقد . . هو مفتاح شخصيته . . كمحلل وناقد . . وأديب . . وقد سبق أن أشرت إلى عبارة . . قالها أديب فرنسى . . وأستاذ جامعى . . عن الإبداع فى الأدب والفن . . بقوله : « إن أفضل القواعد . .

هو الاطلاع المستمر . . على النماذج » ويقصد بذلك . . نماذج الإبداع . . والنقد لا يقل أهمية عن الإبداع . . وإذا كان للمبدع أسلوب فى إبداعه . . فإن للناقد أسلوبه فى إبداعه النقدى . . وفى حالة ما إذا كان المبدع هو « الزهرة » فلمَ لا يكون الناقد . . هو . . البستانى . . الذى يختار هذه الزهرة ليصف جمالها . . ويعرض ما بها . . من خفايا حسنها . . بانتقائه المبدع . . ؟

ومادام الناقد . . صادقاً فى حمل رسالته . . فلابد أن يكون له كامل الحرية فى اختيار الأسلوب . . والأساس الذى يبنى عليه رؤيته النقدية . . ولكن ينبغى أن يحكمها الضمير الحى . . فالصدق . . والأمانة من أهم صفات الناقد الحق . . حتى لا تظلم أعمال أدبية جيدة . . يحكمها ناقد مُغرض . . أو مُلْتوٍ . . وهذا يسرى أيضاً على ناقد المسرحية . . والرواية . . والكتاب والفيلم وكل أنواع النقد . . ؟

■ ■ ■

س – الأدباء الشبان . . يقولون دائماً : نحن بلا أساتذة . . وهم يفتقرون إلى النقد النزيه البناء . . والناقد الحر . . الذى يقوم بتقييم أعمالهم . . وإرشادهم إلى مسارهم الصحيح . . ويريدون أيضاً . . رأى النقاد فى قضايا العصر الفكرية . . ولكنهم لم يلقوا إلا الصمت المطبق . . من النقاد . . كيف يمكن معالجة هذا الإحباط الفكرى . . لأدبائنا الشبان . . ؟

جـ - أولاً . . هذا سؤال يتردد بالفعل كثيراً ويسألنى الكثير من الأدباء الشبان . . « أين أساتذتنا » ؟ أين الذين يوجهوننا . . ؟ وبالفعل . . فإن هناك الكثير من الصعوبات والمعوقات أمام الأدباء الشبان . . لأن الأساتذة . هم « الكتب » وهى نماذج الإبداع . . والاطلاع هو باب التوجيه . . والعلم . . والمعرفة . . ونصيحتى للشباب هى : « اتجهوا إلى إبداع المبدع . . دون شخصه . . وإلى نقد الناقد فى كتابته عنكم . . وعن غيركم . . »

فبغير الكتاب . . لا سبيل إلى إبداع . . ولا سبيل إلى هذا . . فالأديب يمكن أن يتثقف . . ويتعلم . . ويتتلمذ من إبداع السابقين . . وهذا تماماً ما فعلته أنا . . فى ثقافتى ودراستى وإبداعى الأدبى والمسرحى . . أما بخصوص الناقد . . فإن له بالفعل رسالة . . هى التوجيه والإرشاد . . فهو الذى يتصل مباشرة بالأديب والفنان . . ويحلل له عمله ويريه أين موهبته « إن وجدت » وأين نقصه الذى يحتاج إلى استكمال . . ؟

ويرشده إلى النماذج التى يجب أن يطلع عليها . . باستمرار . . وإلى المبدعين الكبار . . ممن يجب أن يعيش فى نورهم . . فالناقد الحقيقى هو الذى يكون قد فهم رسالته من أول الأمر . . وعمل على تكوين نفسه وإعدادها لحمل هذه الرسالة الكبرى فى تكوين الأدباء . . وأسس الأدب . . والأدباء الشبان مطالبون بالاطلاع

. . والدراسة . . واسترشاد الناقد . . فالأستاذ هو الكتاب . . وهو عمل الأدباء الكبار المبدعين . . يسترشد بهم الأديب الشاب . . ويصطفى لنفسه من تتواءم روجه معه . . ومع إبداعه الأدبى . . ويتساءل الشباب . . وهل لدينا نقاد . . للتوجيه والاسترشاد . . ؟

يوجد الناقد الجاد . . ولا يلقى تشجيعاً من أحد للقيام برسالته العظيمة . . حتى ولا من الأدباء الشبان أنفسهم . . فهم مع الأسف . . لا يريدون الآن منه . . نقداً . . ولا دراسة موضوعية لإنتاجهم . . بل يريدون إعلاناً لمواهبهم . . وما يطلبونه من الناقد . . هو أن يكون لهم « مصلحة » « إعلام » وإذا سكت . . قالوا : « إنه يتعالى عليهم . . » . . وهذا صحيح . . فالشباب يريد « الثمرة » قبل « الشجرة » . . ولكن رأيى . . أن يستمر الناقد معهم . . فهم محتاجون إلى عمله . . وفضله - كى يبصرهم . . إن ما يجب أن يهتموا به قبل كل شىء هو تكوين ثقافتهم الشاملة . . المتعمقة . . لتنمو الشجرة القوية . . وأن يبصرهم بوسائل التكوين الثقافى . . ثم يحكى لهم أخبار العظماء والعباقرة . . ممن قامت فى طريقهم العقبات والمعوقات . . وخيبة الأمل . . ولم ينالوا الثمرة . . والنجاح . . إلا بعد صبر . . وجهد . . وإصرار . . ؟

■ ■ ■

س - أين يمكن وضع « النقد » على خريطة . . الأدب . . والإبداع . . وهل يخضع لمذاهب فكرية . . أو لتيارات متباينة . . تتفاوت بأحقابها الزمنية . . ؟

جـ - أيمكن أن نعد النقد « كالخلق » خاضعاً لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة . . وهى : التيار المصرى القديم ، والتيار العربى ، والتيار الأوروبى ؟ أم يمكن أن نعد النقد كالعلم ، لا يخضع لمثل هذه المؤثرات . . والتيارات والموروثات ؟ إننى أترك لفكرى وقلمى أن يجوس خلال هذه المؤثرات . . وأنشىء أولاً بعض التقاسيم على هذا النغم . . دون أن أعنى الآن بالغاية . . إن الغاية أحياناً تكون رخيصة بجانب الوسيلة . . على الأقل فى نظر الفن لأن الغاية فى الفن . . لا تبرر الوسيلة . . الحياة كذلك . . تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق . . أهى شىء غير وسيلة متينة التكوين . . ؟ ألها معنى غير ذلك الطريق المبين الذى أوله ضباب وآخره ضباب . . ؟ خط هندسى رسم على لوح الوجود . . كيف ابتدأ . . كيف انتهى . . لا يعنى ذلك علم الهندسة . . إنه خط بين نقطتين . . وكفى . . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة . . ولا عن غاية الفن . . ولا عن غاية العلم . . إن الغاية لا تهم . . إنما المعنى كله فى الوسيلة . . الحياة هى الطريق . . العلم هو الطريقة . . الفن هو الأسلوب . . أما الغاية . . فلا غاية . . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة . . غاية مطلقة يوماً من الأيام . . ؟ محال . . ما نحن إلا

أسلوب الخالق . . ما الكون إلا أسلوب . . فالتيار المصرى القديم هو النقد المعتمد على الذوق . . ولعل المقياس العربى القديم . . هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى قضايا الشعر والأدب . .

حديث إلى الله :

س - « حديث إلى الله » هذا الحديث الذى أثار ردود فعل واسعة . . بين المثقفين . . ورجال الدين . . ما بين مؤيد . . ومعارض . . ماذا كانت فكرته . . وماذا كانت غايته . . وماذا دعاك إلى هذه «المناجاة» بينك وبين ربك . . تنشرها على صفحات الجرائد . . ؟

جـ - الحقيقة أننى كنت أريد أن أبعث الحياة فى الحركة الثقافية . . ولم أكن أقصد أن أصدم الناس فى أحاسيسهم الدينية . . وقد كتبته وأنا متأثر بذكرى وفاة وحيدى الشاب «إسماعيل » . . ذكرى ابنى الوحيد الذى ولد فى الشهر الثالث . . وتوفى فى الثلاثين من عمره . . « يوم ثلاثاء » وأنا أكتب هذا فى يوم الثلاثاء . . نعم . . إننى أناجى الله . . فلم يبقَ لى فى حياتى الآن . . سوى الحديث إلى الله . . لقد عشت الحياة . . التى قدرت لى . . أكثر من ثمانين عاماً . . جعلت خلالها أهيم فى كل واد . . حاملاً قلماً . . أملأ به الأوراق . . من جد وهزل . . وأعلم أن الله يسمعنى . . وتخيلت . . وافترضت أننى يمكن أن تشف روحى . . لترتفع . . وتناجى الله . . راحة لنفسى . .

وراحة لتساؤلاتى ولا أنتظر أن يجيب الله . . فالله لا يجيب إلا بالوحى . . وَمَنْ أنا حتى يحدثنى الله بالوحى . . !

إننى أطلب من الله . . أن يلهمنى الصواب . . لأننى أخشى أن أكون قد أخطأت ولم يفهم الناس أن هذا الحديث ما هو إلا مناجاة . . من مخلوق إلى خالقه . . مناجاة حب علوى . . !

■ ■ ■

س - ولكن . . إلى أى مدى . . يتيح العمل الأدبى . . والفكرى . . الكلام إلى . . أو مع « الذات الإلهية » . . ؟

جـ - إن الإجابة عن هذا السؤال . . لابد أن يجيب عليه . . رجل من رجال الدين . . وقد أفتوا بقولهم : « إن مخاطبة الذات الإلهية . . إنما تعنى الاستغراق بمزيد من التأمل فى ذات الله سبحانه . . وفى بديع صنعه . . فيما يحيط بنا فى هذا الكون العجيب » ومثل هذا التأمل . . يضفى على صاحبه . . هالة من الجلال . . تجعله يخاطب الله سبحانه وتعالى ويناديه . . أو يناجيه . . مناجاة العبد الضعيف الذليل . . لسيده العزيز . .

وفى الحقيقة . . أننى فوجئت بردود الفعل هذه . . وقد كنت أهدف من الحديث إلى الله . . إلى تنشيط الحياة الثقافية . . وقد حقق هذا الحديث الغرض منه . . وأثار زوبعة فكرية . . ما كنت أبغى من ورائها . . ثورة دينية . . ولا رفضاً . . ولا تضليلاً . . وإنما كانت كل مشاعرى تستشعر ضرورة القرب من

الله . . والكاتب لا يملك إلا فكره . . وقلمه . . وكانت مناجاتى . . التى فجرت ينابيع تساؤلاتى . . من واقع إيمانى . . وهذا مسموح . . ومقبول . . وموجود فى الفكر الصوفى . . منذ مئات السنين . . !

أثر الفكر والتفكير فى الحياة البشرية :

س - الفكر . . والتفكير . . حركة الفكر . . العقل . . ما هو أساس التفكير . . وهل التفكير من خصائص الإنسان وحده . . وخلايا التفكير هل هى فى حاجة إلى غذاء فكرى . . وهل هناك صلة . . بين العلم . . والتفكير . .

جـ - تبدأ المرحلة الأولى للتفكير . . بخلق الإنسان الأول . . وهو التفكير الذى يتصل بنا - نحن البشر - على هذه الأرض . . وخلق « آدم » يمكن أن يسمى « التفكير الإلهى » .

والتفكير صفة خاصة بالإنسان وحده لوجود الخلايا المختصة بذلك فى المخ . . أما الله فإنه يختص بالإرادة . . وهناك صلة بين العلم والتفكير . . ويقول بعض العلماء والمفكرين : إن الله . . هو الزمان والمكان معاً . . والله سبحانه وتعالى . . قد وصف نفسه . . بأنه الدهر . . والدهر هو الوجود . . ولا أظن العلم ينكر هذا . . فالعلم . . أساس التفكير عنده « المحسوسات » وهى تلك التى تدخل فى منطقة الحواس . . باستخدام وظائف الأعضاء الجسدية . . لإدراك الموجودات المجسدة أمامها فى

الأرض والفضاء . . أما الدين . . فهو يستطيع بالإيمان أن يرى بغير الحواس . . ولذلك كان من أصعب الأشياء إقناع غير المؤمنين بدون تقديم الدليل المحسوس . . المحسوس بمعجزة حسية . . أما ما جاء من إيقاظ للتفكير بالاكتشافات العلمية «التكنولوجيا » فلا يهتم به . . إلا من كان فى مرتبة المتخصصين . . أو أهل الفكر . . وهذا ما يشترك فيه . . الدين والعلم . . وهو ما يتعلق بالطبيعة البشرية . . واهتمامها أول ما تهتم بالغذاء . . وهو دعامة الحياة . . وضرورة الوجود . . فمنذ خلق الله آدم . . علمه البحث عن الطعام فى الجنة . . بفاكهتها . . يأكل منها ما يشاء . . إلا ما نهاه عن تناوله ليعلمه بوجود الممنوعات إلى جانب المسموحات . . فلما أخرجه من الجنة . . ودفع به إلى الأرض . . كان عليه أن يسعى هو فيها . . بحثاً عن طعامه . . وهو ما اتجه إليه العلم . . أيضاً فى بحثه عن أول مراحل التفكير البشرى . . وهو : التفكير فى وسائل الحصول على الغذاء فى الأرض فوجد ذلك فى الصيد . . وهذا ما يقوله العلماء . . وما قرأته فى كتبهم منذ سنوات . . فى كتاب لمفكر ألمانى هو « كيسر لنج » نقل صورة رسمها عالم يدعى . . «جيمس روبنسون » مفترضاً أن حياة البشرية . . تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة « نصف مليون » جعلها هو . . للتبسيط (٥٠) سنة – فوجد أن (٤٩) سنة من هذه الخمسين المفترضة قد قضتها البشرية فى حياة الصيد . . بحثاً عن الغذاء . . ولم تبلغ فى

نهايتها من حيث المعرفة والإدراك . . إلا درجة تمكنها من استئناس بعض الحيوان . . ونسج بعض الخشن من الثياب . . أما السنة الباقية الأخيرة من الخمسين . . فقد رأى العالم أن الإنسان قد ترك فيها مرحلة الصيد . . ودخل مرحلة العلم . . أى « مرحلة التفكير . . البشرى . . المقترن بالعلم الحديث » وكان ينبغى أن يمضى من هذه السنة الأخيرة . . نحو ستة أشهر قبل اختراع الكتابة . . وباختراعها وضع أساس من أسس الفكر والحضارة . . ثم ثلاثة أشهر بعدها . . للوصول بالفن والأدب والفلسفة إلى القمم التى بلغناها . . ثم شهرين فى ظل الحياة الدينية ولم يتطلب ظهور الطباعة . . غير ليلة واحدة . . وآلة البخار غير أسبوع . . ويومين أو ثلاثة . . لتخوض البواخر عبر البحار . . ولم يبق غير يوم واحد . . اكتشفنا فى ليلة منه . . أعاجيب الكهرباء . . وأخيراً لم تبق منه . . غير ساعات معدودات . . كانت كافية . . لنعرف الملاحة فى الجو . . وتحت الماء . . وهكذا نرى . . أن حياة التفكير البشرى فى مراحله المختلفة على أساس هذا التبسيط قد بلغت سنة واحدة فى عمر «النشاط الإنسانى » الذى بلغ الخمسين . . فى تقدير العلم . . !

■ ■ ■

س – ماذا دعاك إلى هذا التحليل – فى مراحل تفكير الإنسان وارتباطه بالعلم ؟

جـ – ما دفعنى إلى هذا التحليل . . عن مراحل التفكير هو

خوفى من أن تضعف فى الإنسان « أداة التفكير » بإحلال الآلة محله . . فى القيام بعملية التفكير . . وما أخشاه فى القرن القادم أن تضمر فى الإنسان عضلة الفكر . . كما يقول العلم . . بأن بعض الأعضاء يضمر بعدم الاستعمال . . وهذا ما وجدته مطبقاً تماماً . . عندما أحضر لى حفيدى جهاز حاسب ليظهر المبلغ المطلوب . . كان به جدول الضرب والطرح والقسمة والجمع . . والعقل البشرى فى وضع . . معطل عن التفكير . . وتم وضع هذا العقل والتفكير فى عقل آلة . . إذن . . نحن مقبلون على وضع التفكير البشرى فى عقل الآلة . . فأى جيل فى المستقبل سوف يظهر على هذه الأرض . . ؟



المرأة فى كتب وحياة توفيق الحكيم

« إن عقل المرأة إذا ذبل .. ومات .. فقد ذبل عقل الأمة كلها .. ومات »

« توفيق الحكيم »



المرأة فى فكر الحكيم :

س – المرأة كان لها نصيب كبير من هجوم توفيق الحكيم – وكان لها نصيب أكبر فى إسباغ المحاسن والفضائل . . فى كتاباتك . . هذا التناقض . . وهذه الازدواجية فى الفكر تجاه المرأة . . ما سببها . . كيف كانت . . وكيف أمست . . وكيف أصبحت . . ؟

جـ – كل هذا التناقض . . بلا شك . . نتج عن رواسب الطفولة الأولى . . فالأسرة هى الخلية الأولى . . منها يتشبع الطفل . . وينهل من نبع الحنان . . ولم أجد هذا الحنان . . للشخصية القوية المتعالية . . لأمى . . فتباعدت . . وأنشأ هذا الابتعاد . . ميلاً إلى الانطواء والعزلة . . والتى كانت من أكبر الأسباب التى خلقت فىَّ ملكة التأمل فى صمت . . والفن . . كان يشتعل فى حواسى . . وتجمع الفن . . والحنان . . ليتمثل فى « الأسطى حميدة » المطربة الشعبية السكندرية أو الإسكندرانية . . وتعلقت بها . . كتعويض عن الحرمان من الحنان الذى لاقيته فى طفولتى . . ؟ فالمرأة فى نظرى . . «أمومة . . وحنان» . . ؟

أما هذه الازدواجية . . فهى الخوف منها . . إن المرأة تأتى كالصاعقة . . كالقدر الداهم . . سواء أكانت طيبة . . أم

شريرة . . فهى فى كلتا الحالتين . . سوف تكبل الرجل . . فى فكره . . وفى حياته . . وهو فى هذه الحالة سوف يفقد حريته تماماً فى تشكيل حياته بنفسه . . ؟

■ ■ ■

س - هذا لا يتماشى مع ما كتبته من تقديس وإجلال . . وإشعاع فكرى . . عن المرأة فى كتابك « تحت شمس الفكر » فما تفسير ذلك . . ؟

جـ - لقد ناديت بتثقيف المرأة . . تثقيفاً تاماً لتكون زينة البيت . . وأستاذ الطفل . . ومعلم الجيل . . فالمرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها . . وعقلها المغلق . . وهى ليست خادماً . . تطعم الرجل . . وتغسل له ملابسه . . ولكنها شريك محترم . . ينبغى أن يجد فيه الرجل متعة عقلية . . تحبب إليه البيت . . حتى لا يهرب الرجال إلى المقاهى والحانات . . هاربين من وحشة المنزل . . الذ ى لا يحوى غير نساء . . كالخادمات . . إننى أؤيد بقاء المرأة فى البيت لكى تكون بحق . . ملكة البيت . . إن من النساء فى صدر الإسلام . . من فُقن الرجال فى فنون الأدب والعلم . . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة . . يحضرها رجال الدولة . . ونوابغ الشعراء والأدباء . . والمغنون . . وكان ذلك فى عصر . . لم تزاحم فيه المرأة الرجل . . فى المناصب والأعمال . .

إن المرأة . . زهرة البيت . . وروحه . . كلنا فى ذلك متفقون . .
فلنجعلها إذن زهرة يانعة . . ونعرضها قليلاً للشمس والهواء . .
إن عقل المرأة . . إذا ذبل ومات . . فقد ذبل عقل الأمة كلها
ومات . .

■ ■ ■

س – ما معنى قولك . . إن المرأة زهرة البيت وروحه . . وما معنى أن تهاجم المرأة . . وتعاديها . . لثقافتها . . وتحررها . . وتدعى جهلها بشئون البيت . . حتى إنها لا تستطيع طبخ « صينية البطاطس » الشهيرة لتوفيق الحكيم . . ؟

جـ – إننى أكره المرأة التى تتشبه بالرجال . . ولا أكره ثقافتها . . إن الأنثى تفقد كثيراً من جمالها وأنوثتها . . إن لم تظل «أنثى فقط » . . وكانت سيدات ذلك العصر « أيام صينية البطاطس » « المودرن » سيدات الصالون . . اللائى فهمن الحرية والمدنية والتحرر بمفهوم عكسى . . يستنكفن أن يدخلن المطبخ ، إنهن «سيدات صالون . . وزهرات مجتمع ليس إلا » وهذا فى رأيى . . ينافى طبيعة المرأة التى خلقت للبيت . . ومسئولية هذا البيت . . وكانت « صينية البطاطس » وهى أبسط الأكلات . . ولا تحتاج إلى علم أو مجهود . . هى شعار « عداوتى للمرأة فى ذلك الحين . . وأنا لم أكن أقصد « صينية البطاطس » بالذات . . ولكننى قصدت . . شططاً فى عقل ومفهوم المرأة المتحررة . . وقد كان هذا التشبيه مثلاً . . فقلت :

حتى « صينية البطاطس » . . لا تستطيع المرأة المتحررة أن تصنعها . . لأن مفهوم الحرية عند المرأة . . كان خافياً على مجتمع الصالونات . . ويلاحظ التطور فى تصويرى للمرأة الجديدة . . ففى مسرحية « المرأة الجديدة » صورت المرأة المتحررة بهذه الصورة المقيتة . . ثم بعد ذلك . . عندما كتبت « الأيدى الناعمة » أشرقت صورة المرأة الجديدة . . التى تعمل . . وتهتم ببيتها . . ومطبخها . . ولا تلبس الجوانتى . . وهذه هى الصورة الطبيعية للمرأة . . ؟

وبالطبع . . كان تفكيرى قد تغير تماماً عن المرأة بعد الزواج . . إن المرأة الصادقة كنز . . عرفت فيها ما لم أكن أعرف . . من الوفاء . . والإخلاص . . التفانى فى صمت . . ورضيت بفقد حريتى . . لأننى وجدت الحرية مع المرأة التى ارتضت بكل شروطى القاسية . . وهى « عدم فقد حريتى » . . ؟

■ ■ ■

س – إذن ما سر هذه العداوة . . ؟

جـ – كل المسألة . . أننى وجدت أن المرأة مخلوق . . يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا . . لذا فإن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشاه . . إن عداوتى ليست إلا دفاعاً عن نفسى . . فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبى . . أو باقة من الزهر . . فى حجرتى . . أو أسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها

بإرادتى . . لما كان عندى غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . . ولكنها للأسف - شىء يتكلم ويتحرك . . ولكنى مع ذلك أعترف أنه من المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها . . ولا انحطت بدونها . . فإن فى يديها العبقريتين . . عبقرية الفناء ، وعبقرية البناء . . وإن صالونات السيدات فى أوروبا . . ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب . . هى التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق . . من شعر . . وآداب . . وفنون . . !

إذن ما قيل . . إن مصر الحديثة . . لم تر بعد فناً ناهضاً . . ومن ثم . . لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة . . فإن السبب الوحيد . . أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح . . مازالت فى مصر . . نادرة الوجود . . !

■ ■ ■

س - إذن المرأة هى الفن . . وهى الإلهام . . وهى الوجود . . ؟

جـ - اعتراف آخر . . إذا ما تكلمت عن الفن . . فإننى أقول إن المرأة هى روح الفن . . ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض . . فربما وجد العلم . . لكن المحقق أنه ما كان يوجد « الفن » .

ذلك أن الإلهام الفنى هو نفسه قد خُلق على صورة امرأة . . وأن لكل لون من ألوان الفن عروساً . . هى التى تنثر أزهاره على الناس . . ما من فنان على هذه الأرض . . أبدع شيئاً - إلا فى ظل

امرأة . . وهذا القول . . منى غريب . . ولأبادر بتوضيح قصدى . . حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق . . وأعنى الحق الذى تراه المرأة . . كلا . . إنى لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . . وكل ما فى المسألة . . أنى دائماً أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال . . وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا . . ! وأن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض همها . . لإيقاظ همم الفنانين . . وإيقاظ الحركة الفكرية . . هو اليوم الذى تقترب فيه من المدنية الحقيقية . . نحن فى حاجة إلى البيت المصرى . . الذى تنمو فيه . . ملكات الطفل الجميلة . . !

الحب فى حياة الفنان :

س - الحب . . بطريق مباشر . . أو غير مباشر . . يتسلل فى جميع قصصك ورواياتك . . ومسرحياتك . . هل الحب ضرورة . . وجود . . معنى . . قيمة . . أو حياة . . ؟

جـ - الحب هو كل ذلك . . ضرورة . . وجود . . معنى . . قيمة . . وحياة . . بل هو الشىء الجميل الوحيد فى الحياة . . ولو كان القدر قد أعطانى هذه المنحة . . لحظة واحدة . . وجعلنى أجد أحداً يحبنى حقيقة . . لتغير كل شىء . . كل شىء . . !

كان الهروب الدائم . . الهروب من الحب . . هروب أول . .

وهروب ثان . . وهروب دائماً . . من المرأة . . ومن الحب . . !

■ ■ ■

س - والعداوة . . والهروب . . ما هى إلا عملية « تمويه » كاذبة . . تغطى بها حبك للمرأة . . يتمازج الحب والخوف من طغيانها الأزلى . . على مشاعر الفنان . . فتستحوذ عليه كلية . . وفى هذا تملك وامتلاك غير مشروع . . وغير مسموح به عند توفيق الحكيم . . ؟

جـ - نعم . . ونعم . . ونعم . . هذاحق . . إذا ما مدت المرأة يدها . . بمفتاح الحياة . . لا يسعنى إلا الهروب . . خوفاً وإشفاقاً من نتائج هذا الحب . . وكان كل هذا يتمثل فى القصة والرواية . . وإننى أحب الحب . . وللحب مقام كبير عندى فى الحياة . .

إن الذى لا يعرف . . ولا يستطيع أن يحب إنساناً . . لن يعرف . . ولن يستطيع أن يحب الإنسانية . .

إن الحب . . قصة لا يجب أن تنتهى . . وجوهر الحب . . مثل جوهر الوجود . . لابد أن فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو . . « المطلق » وبموت الحب على الأرض . . ينتهى العالم . . !

فى ورقة منفصلة . . بين مخلفات « بتهوفن » . . وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب . . الحب . . ليس غير الحب . . هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة . . آه . . يا

إلهى . . دعنى أجدها أخيراً . . تلك التى فى مقدورها أن تدعم فضائلى . . تلك التى قد سمح لى . . أن تكون زوجتى . . ! »

إن الحب روح الفنان . . ولا حياة لفنان . . بدون حب . . !

■ ■ ■

س - تقول إن الحب هو أجمل شىء فى الوجود . . وإن كلمة الحب هى اللمسة السحرية التى تهز مشاعر المرأة . . فلمَ . . ؟

جـ - لا داعى لهذه الذكرى . . ولا داعى لهذا التساؤل الذى أعرفه . . فإن هذه الذكرى تملأ جوانب نفسى بالأسى والألم والشجن . . كانت تودعنى بقبلتها طوال حياتى معها . . ولم يتضاءل فكرى بجانبها مرة واحدة . . ليهمس لها بكلمة حب . . آهٍ لو عاد بى الزمن . . وعادت هى إلى . . ماكنت أحرمها من هذه الكلمة التى كانت تتوق إليها من فم زوجها - كنت أعتقد أن هذه الكلمة لا لزوم لها . . ولكننى أدركت الآن . . أنها أكسير الحياة . . ؟

الرباط المقدس :

س- « راهب الفكر » ومع ذلك . . أحببت المرأة - فى « الرباط المقدس » . . ؟ أو جعلت « الراهب » يحب المرأة - هذه الرواية . . أو هذا العمل الأدبى . . شكل فكر « توفيق الحكيم » - فى رحلة داخل هذه الرواية - ماذا تقول عنها - أو ماذا نقول نحن القراء . . وما حكايتها . . ؟

بإرادتى . . لما كان عندى غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . .
ولكنها للأسف - شيء يتكلم ويتحرك . . ولكنى مع ذلك
أعترف أنه من المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت
بدونها . . ولا انحطت بدونها . . فإن فى يديها العبقريتين . .
عبقرية الفناء ، وعبقرية البناء . . وإن صالونات السيدات فى
أوروبا . . ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب . . هى
التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق . . من شعر . .
وآداب . . وفنون . . !

إذن ما قيل . . إن مصر الحديثة . . لم تر بعد فناً ناهضاً . .
ومن ثم . . لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة . . فإن
السبب الوحيد . . أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح . .
مازالت فى مصر . . نادرة الوجود . . !

■ ■ ■

س - إذن المرأة هى الفن . . وهى الإلهام . . وهى الوجود . . ؟

جـ - اعتراف آخر . . إذا ما تكلمت عن الفن . . فإننى أقول
إن المرأة هى روح الفن . . ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض . .
فربما وجد العلم . . لكن المحقق أنه ما كان يوجد « الفن » .

ذلك أن الإلهام الفنى هو نفسه قد خُلق على صورة امرأة . .
وأن لكل لون من ألوان الفن عروساً . . هى التى تنثر أزهاره على
الناس . . ما من فنان على هذه الأرض . . أبدع شيئاً - إلا فى ظل

امرأة . . وهذا القول . . منى غريب . . ولأبادر بتوضيح قصدى . . حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق . . وأعنى الحق الذى تراه المرأة . . كلا . . إنى لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . . وكل ما فى المسألة . . أنى دائماً أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال . . وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا . . ! وأن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض همها . . لإيقاظ همم الفنانين . . وإيقاظ الحركة الفكرية . . هو اليوم الذى تقترب فيه من المدنية الحقيقية . . نحن فى حاجة إلى البيت المصرى . . الذى تنمو فيه . . ملكات الطفل الجميلة . . !

الحب فى حياة الفنان :

س - الحب . . بطريق مباشر . . أو غير مباشر . . يتسلل فى جميع قصصك ورواياتك . . ومسرحياتك . . هل الحب ضرورة . . وجود . . معنى . . قيمة . . أو حياة . . ؟

جـ - الحب هو كل ذلك . . ضرورة . . وجود . . معنى . . قيمة . . وحياة . . بل هو الشىء الجميل الوحيد فى الحياة . . ولو كان القدر قد أعطانى هذه المنحة . . لحظة واحدة . . وجعلنى أجد أحداً يحبنى حقيقة . . لتغير كل شىء . . كل شىء . . !

كان الهروب الدائم . . الهروب من الحب . . هروب أول . .

وهروب ثان . . وهروب دائماً . . من المرأة . . ومن الحب . . !

■ ■ ■

س - والعداوة . . والهروب . . ما هى إلا عملية « تمويه » كاذبة . . تغطى بها حبك للمرأة . . يتمازج الحب والخوف من طغيانها الأزلى . . على مشاعر الفنان . . فتستحوذ عليه كلية . . وفى هذا تملك وامتلاك غير مشروع . . وغير مسموح به عند توفيق الحكيم . . ؟

جـ - نعم . . ونعم . . ونعم . . هذاحق . . إذا ما مدت المرأة يدها . . بمفتاح الحياة . . لا يسعنى إلا الهروب . . خوفاً وإشفاقاً من نتائج هذا الحب . . وكان كل هذا يتمثل فى القصة والرواية . . وإننى أحب الحب . . وللحب مقام كبير عندى فى الحياة . .

إن الذى لا يعرف . . ولا يستطيع أن يحب إنساناً . . لن يعرف . . ولن يستطيع أن يحب الإنسانية . .

إن الحب . . قصة لا يجب أن تنتهى . . وجوهر الحب . . مثل جوهر الوجود . . لابد أن فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو . . « المطلق » وبموت الحب على الأرض . . ينتهى العالم . . !

فى ورقة منفصلة . . بين مخلفات « بتهوفن » . . وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب . . الحب . . ليس غير الحب . . هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة . . آه . . يا

إلهى . . دعنى أجدها أخيراً . . تلك التى فى مقدورها أن تدعم فضائلى . . تلك التى قد سمح لى . . أن تكون زوجتى . . ! »

إن الحب روح الفنان . . ولا حياة لفنان . . بدون حب . . !

■ ■ ■

س - تقول إن الحب هو أجمل شيء فى الوجود . . وإن كلمة الحب هى اللمسة السحرية التى تهز مشاعر المرأة . . فلمَ . . ؟

جـ - لا داعى لهذه الذكرى . . ولا داعى لهذا التساؤل الذى أعرفه . . فإن هذه الذكرى تملأ جوانب نفسى بالأسى والألم والشجن . . كانت تودعنى بقبلتها طوال حياتى معها . . ولم يتضاءل فكرى بجانبها مرة واحدة . . ليهمس لها بكلمة حب . . آهٍ لو عاد بى الزمن . . وعادت هى إلى . . ماكنت أحرمها من هذه الكلمة التى كانت تتوق إليها من فم زوجها - كنت أعتقد أن هذه الكلمة لا لزوم لها . . ولكننى أدركت الآن . . أنها أكسير الحياة . . ؟

الرباط المقدس :

س- « راهب الفكر » ومع ذلك . . أحببت المرأة - فى « الرباط المقدس » . . ؟ أو جعلت « الراهب » يحب المرأة - هذه الرواية . . أو هذا العمل الأدبى . . شكل فكر « توفيق الحكيم » - فى رحلة داخل هذه الرواية - ماذا تقول عنها - أو ماذا نقول نحن القراء . . وما حكايتها . . ؟

جـ - « الرباط المقدس » يعنى رباط الزواج . . فهو الرباط الوحيد الذى قدسه الله . . وحلله الشرع . . وأجازه القانون . . ورضى عنه المجتمع . . فالزواج شركة روحية . . وجسدية . . وفكرية . . وتعنى فى صلتها الطهارة . . والقداسة . . ؟

إننى لا أرى الحب . . إلا فى طهارته . . ولا أرى الإنسان . . إلا فى قداسته . . وكرامته . . وخاصة الأديب . . أو « راهب الفكر » لقد كنت دائما . . أزدرى أولئك الذين ينشرون على الناس أدباً رفيعاً . . وجمالاً بديعاً . . ثم يعيشون حياة . . كلها ضعة . . وخسة . . وقبح . . فالكاتب الحق فى نظرى . . هو مثل يحتذى به . . فى باطنه وفى ظاهره . . وإن لم يكن كذلك . . فهو إذن مهرج . . يلبس للناس على الورق ثياب الملوك . . وإذا خلا بنفسه خلعها . . وبدا فى حقارته . . كأنه شحاذ . . وهكذا . . أردت أن أجعل من راهب الفكر . . فى الحب . . أجعله . . «راهب تاييس » . . أردت له أن ينطق بالحب الروحى . . بتلك الكلمات التى انطلق بها الراهب « يافنوس » ذلك الراهب . . الذى ترك صومعته فى بطن الصحراء . . ومشى الليالى الطويلة . . حافى الأقدام . . يطأ الحشرات . . ويأكل عشب الأرض . . ليذهب إلى الغانية الجميلة « تاييس » فى مدينة الإسكندرية كى يهديها إلى نور السماء . . إن حب العقيدة . . طوى حبه لتلك المرأة . . إنه ذهب إليها . . ليعطيها الحب . . ويهبها الخلاص . . هذا هو الحب . . الذى كنت أريده « لراهب

الفكر » مناجاته كمناجاة « راجتابيس » « أحبك . . أحبك . .
لا على مثال هؤلاء الرجال . . الذين يجيئونك محترقين فى مطالب
الجسد . . كأنهم الذئاب الضارية . . أو الثيران الثائرة . . إنك
محبوبة لدى هؤلاء . . ولكن حب السبع للغزال . . إن غرامهم
المفترس . . يفتك بك حتى فى قرارة نفسك . . أما أنا أيتها
المرأة . . فإنى أحبك حب الروح . . حب الحقيقة . . أحبك فى
الله . . ولدهور الدهور . . إن ما أحمله لك فى صدرى . . هو
حرارة الحق . . هو الإحسان الإلهى . . وإنى أعدك بما هو خير
من النشوة الفانية . . والحلم الزائل . . أعدك بأفراح السماء . .
إن النعيم الذى آتيك به . . لا ينتهى أبدا . . إنه لعجب من
العجب . . إنه الإعجاز الذى يفوق كل إعجاز . . ولو قدر
لسعداء هذه الدنيا أن يلمحوا مجرد ظله . . لخروا فى الحال أمواتاً
من الدهشة . . أيتها السماء . . اشهدى . . إنى لن أترك هذه
المرأة حتى أضع فى جسدها روحاً مماثلا . . لروحى فالهمينى كلاماً
ملتهباً يذيبها . . كما تذوب الشمعة تحت أنفاسى .

أيتها المرأة . . ألا فلتكن أصابعى قادرة على أن تصنعك من
جديد . . وتطبعك بطابع جمال جديد . . لتصبيحى بعدئذ . .
وأنت تذرفين العبرات من الفرح : « اليوم فقط ولدت – اليوم
فقط . . رأيت النور » . .

هذا ما أردت أن أمارسه مع المرأة التى ساقها حبها للأدب إلى

صومعة « راهب الفكر » وهذا ما أردت أن أقوله لها . . وأهديها إلى طريق الأدب . . فإن الرجل . . الذى يستطيع أن يلقى فى أذن المرأة مثل هذه الكلمات التى جاءت على لسان . . فابيوس - لتاييس - لابد بالغ منها . . ما يريد هو . . لا ماتريده هى . . فإن المرأة . . هذه الزهرة . . الأرضية . . السماوية فى آن واحد . . لتتفتح أكمامها لمجرد تساقط لفظ « الحب . . الندى » مهما يكن الثوب الذى يتخذه الحب . . ومهما تكن غاياته . . ومراميه . . إن إيمان المرأة . . هو الحب . . ها هنا السبيل الهين . . السهل . . الذى يوصل المرأة إلى الإيمان . إلى كل إيمان . . هذا ما قصدت إليه . . فإن رسالة « راهب الفكر » هو هداية الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - إلى حظيرة الإيمان . ؟ وهو بإمكانه أن ينفخ فى دمية من طين . . ومن تراب . . ليشكلها وفق فكره . . النبيل المقصد . . والنبيل الغاية . . والهدف .

■ ■ ■

س - ولكن . . غانية أنا تول فرانس . . غير فتاة الرباط المقدس . . شتان ما بين المرأتين . . فكيف يمكن تحويل روح المرأة التى جُبلت عليها . . ؟ وهل للحب مثل الجبروت وهذه القوة . . بحيث يمكن تغيير الغانية إلى قديسة . . والجاهلة . . إلى أديبة . . ؟

جـ - هذا سؤال وجيه جداً . . فالمرأة بطبعها . . تنقاد للكلمة الحلوة . . وأول طريق يحرك مشاعر المرأة . . ويقنع عقلها . .

هـو « القلب » فالعاطفة تشدهـا ، وتحولها . . وتغيرهـا إلى الأفضل . .

وقد لمست فى فتاة « الرباط المقدس » أسلوباً فى رسائلها . . لا ينقصه إلا اكتشاف هذه الأعماق . . وجدت فيها نبعاً صافياً . . وجوهر الروح الأدبى . . فالأسلوب كان يقرب من الحديث ولا يقرب من أسلوب الكاتب . . أما الروح فهى جوهر نفيس . . وليس المنشود لهذه الفتاة التى تريد أن تتعلم الأدب حذق الأسلوب الأدبى . . من حيث هو خلق وإنشاء وتعبير . . بل من حيث هو روح . . يضىء داخل نفسها البلورية فينطق لسانها بالحديث الرفيع . . ويطلق من صدرها . . المشاهد العالية . . والأفكار السامية . . !

وقد وضح السبيل . . وأشرق . . وتحدد عمل راهب الفكر. . وتبلور . . وتركزت . . الغاية . . فهو سوف يخلق من هذه الفتاة فتاة أخرى . . خلقاً جديداً . . كما يخلق المبدع القصة . . وبطلات رواياته . . إنها الآن المخلوق وهو الخالق . . ولسوف يجعل منها عروساً . . تمرح بشعرها المرسل . . وروحها المضىء فى مروج الفكر . . الرحبة . . المزهرة . . ولسوف يجعل منها . . ملكة . . من ملكات المجالس . . ممن جاءت أخبارهن فى التاريخ . . تعرف كيف تمس بصوبلجان فكرها وروحها . . نفوس الرجال . . كما يمس المرود . . العين . . فإذا تلك النفوس . .

قد تفتحت لترى ما لم تر . . وإذا النشاط قد دب بها . . فتثمر القرائح . . وتنهض الهمم . . وإذا الخير قد فاض . . والحياة قد نبضت فى الأشياء . . والكائنات . . !

والكاتب المفكر . . هو خالق مبدع . . فمن يبدع الكلمة . . ويخلق العمل الأدبى . . فمن الأجدر به أن يخلق روحاً أدبية . . تتوق إلى العلم والأدب . . والمرأة هى كنز الكنوز . . ولكن كنز مدفون فى سابع طبقات الأرض . . فمن يستخرجه غير ساحر من حذاق الكهان . . بل هو معجزة المعجزات . . مطوية فى سابع طبقات السماء . . فمن يستنزلها . . غير راهب شديد الإخلاص . . قوى الإيمان . . !

■ ■ ■

س – هذا . . إذا كان « راهب تاييس » قد تمكن من رفع غانيته إلى السماء . . وتمكن من انتشالها . . من وهدة الضياع . . فالمرأة كما تقول عنها دائما . . إنها داهية مصيبة تنقض كالصاعقة . . وتأتى كالقدر . . فما حدث للغانية أناتول فرانس . . هل يا ترى حدث لفتاة « راهب الفكر » . . ؟

جـ – ومازلت أقول وأكرر . . إنها صاعقة . . وهى كالقدر الداهم . . وهى التى يمكنها أن تهبط بالفكر إلى مستواها السفلى . . وأن ترتقى بالفكر إلى مستواه العلوى . . وأن تأثيرها قوى على أشد النفوس تبتلاً . . فما بالك . . براهب الفكر . . ؟

لقد حاولت أن تعلمه الكذب . . وأن تنزله من منزلته الرفيعة درجات . . وتنجح فى ذلك . . أى نجاح . . ! وتبلبل فكره . . وتنزله من سماواته العليا . . إلى حضيض الواقع السفلى . . وأن تشده بخيط رفيع . . يجذبه إليها . . وفى يدها هى . . طرف هذا الخيط . . تحركه وتجذبه . . وترخيه . . وقتما تشاء . . وحينما تشاء ويكفى أنها قد هزت من رسوخ « راهب الفكر » وأهدت إليه القلق . . وتوتر الانتظار . . وغيرته عن سابق عهده . . من راحة البال . . وعلمته العذاب والسهاد . . وطيف يتراءى له فى أحلامه . . ويقوم من النوم مذعوراً . . ليهرع إلى كتبه يستمد منها العزاء . . حتى القراءة التى كان يعتصم بها فى ليالى السهاد . . ما أفلحت فى إنقاذه . . وتخير فى ليل كتاباً فى الفلسفة « لأبى بكر الرازى » ليطالع رأيه فى الحب الذى فيه يقول : « إن مفارقة المحبوب أمر لابد منه اضطراراً بالموت . . وإن سلم من حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل . . المفرقة بين الأحبة» . . إن الفراق مرير . . وآه من المرأة . . وآهٍ منها . . ! جعلت راهب الفكر . . يقضى الليل ساهراً . . يدمى جفنه الأرق . . ويحرق قلبه الشجن . . !

أثر المرأة فى راهب الفكر :

س – الحب . . الحب . . وتنكر إذن الحب . . وراهب الفكر . . يغرق فى الحب . . وطيف الأنثى يداعب خياله . . وتذوب أفكاره . .

وتنتشى . . لهفهفة ثوب . . أو لرائحة عطر ولو أنها ذكرى . . ؟ أليس هذا دليلا قوياً على قوة تأثير المرأة وفاعليتها ؟

جـ - ومن ذا الذى أنكر قوة تأثير المرأة وفاعليتها . . إنها القوة . . مغلقة فى هفهفات ثوب . . ورائحة عطر . . إنها الأنوثة . . المستضعفة ظاهريا . . القوية الشرسة داخلياً . . وإن لها من نعومة الملمس والمظهر والصوت ما يذيب تلال الجليد . . ولكن الحذر منها ومن شرها الذى يكمن تحت ملمس هذه النعومة . . إنها شر مستطير . . ألم تجعل النوم يطير من عيون «راهب الفكر»؟ ألم تشتت خاطره . . وتبلبل أفكاره . . وتقلب ليله نهاراً . . وتغير من عادات وأهواء جُبل وتعود عليها ؟ لولا دخولها وظهورها فى حياة « راهب الفكر » ما تأثر . . وما تغير شيىء فى حياته . . أو فى عاداته . . وما أضاعت ثمار فكره . . فى تشتت حائر لها . . ولطيفها . . وما زاره قلق الانتظار وتلهف الفكر على لقيا . . فتاة اتخذته مادة للهوها . . وعبثها . . وتجربة سحر جبروتها . . وتأثير جمالها . . وهذا يؤكد تماماً ما سبق أن أعلنته . . أن المرأة صاعقة ، خطر ، شر داهم ، قدَر يصيب كالمرض والبلاء . . الذى لا شفاء منه . . !

إذن فالبعد عنها غنيمة . . وأى غنيمة . . !

ولكنه الألم . . الألم الذى سببته هذه المرأة . . فقُربها آلام . . وبُعدها آلام . . والحياة معها آلام وآلام . . ولكن الحب قاهر

جبار . وهو الرجل الذى لا يحيد أبداً عن واجب الشرف . . أو يصرف زوجة عن واجبها المقدس نحو زوجها . . وليس من سبيل إلى إرضاء نزعات الروح . . وهواجس القلب . . وأنات المشاعر . ولهيب الشوق إلا بالإفضاء إلى من يحمل سره . . ويرطب مشاعره . . ويسرى عنه . . « القلم » والكتابة . . طريق الراحة والهناء . . لراهب الفكر . . من هنا جاءته فكرة سكب مشاعره وأناته على الورق . . دون مساس بكرامة أحد . . !

■ ■ ■

س - وهل يمكن الخطابات أن تغنى عن المشاهدة . . والملاطفة . . والملامسة . . والمناجاة . . بين رجل وامرأة . . إنها على ما أعتقد مناجاة خرساء . . بلا تجاوب . . بلا حرارة . . بلا متعة . . بلا انفعال . . إنه إذن . . الحب الأفلاطونى . . ؟

جـ - الحب الأفلاطونى . . أو الحب العذرى هو أسمى وأنبل ألوان الحب . . إنه حب بلا حدود . . بلا مقابل . . بلا رؤيا . . بلا تعاطف . . إنه انصهار روح تحترق على الورق . . ولا تبغى أكثر من الإفضاء بما يضنى النفس . . لعل فى هذا الإفضاء إرضاء للروح . . والقلب والفكر . . والجسد . . !

وقد حاول راهب الفكر أن يهدهد من مشاعره . . ويربطها قليلاً بالكتابة . . لعل فى هذا ما يريحها . . وأن ينفس قليلاً عما يضنيه . . ويتلذذ بينه وبين نفسه من وصف جمالها . . واعترافه

أيضاً بينه وبين نفسه أنها دائما حاضرة أمامه . . مُتتبعة لكلامه . . يراها . . بوجهها . . بأهدابها . . بنظراتها . . بشعرها . . بثغرها . . وطالب طيفها بأن يكون رفيقاً يمشى إلى جانبه . . لأن طريقه موحش . . كئيب . . ؟

لقد تغير راهب الفكر . . غيرته المرأة . . ألم أقل إنها تتسلل بنعومة . . وخبث لتستحوذ على الرجل . . ومشاعره . . وحياته كلها . . لا يسعدها إلا هذا التملك . . وهذا الاستحواذ . . !

■ ■ ■

س - هذه الرومانسية الفائقة . . التى اكتست « راهب الفكر . . » من أين أتت . . وكيف استطاع مفكر . . متبتل فى محراب الفكر . . أن يهيم هكذا . . ساهماً . . مناجياً . . خاشعاً . . لِطَيْف امرأة ؟

جـ - إنه الحب . . ذلك الساحر العجيب . . لقد جعل الراهب ينهنه لزقزقة العصافير . . وصوت الكنارى بعد أن كان ينفر منها . . جعله يهيم فى سكون الليل ويناجى القمر . . وها هو . . يتحسر على أيامه القاحلة . . ويحسد الحبيبة لهنائها بزوجها . . ويراها الزوجة . . التى طالما تمنى الظفر بمثلها . . ولكن الحياة ضنت بها عليه والرومانسية هى لغة الحب . . وأهازيج القلب وأنات الروح العاشق . . !

وهام فى صور المرأة . . الفاضلة . . التى يحلم بها . . من «مارى آن » زوجة . . إلياس « دزرائيلى » . . إلى « إيزيس »

المصرية ووفائها . . وهو يكره غدر المرأة الخائنة . . كما فى رواية «هملت» « لشكسبير » حينما كانت إيزيس تجوب الأرض أعواماً بحثا عن صندوق « أوزوريس » وقد جزت شعرها . . ولبست ملابس الحداد . . إذا بالزوجة الأخرى الخائنة . . تبادل أخا الزوجة الغرام الآثم . .

والحب يطهر النفوس . . فهو يرى محبوبته فى وفاء إيزيس . . ويراها تنبض بكل الحب . . وكل الوفاء . . ويراها فى « خديجة» زوجة النبى . . لأنها هى التى تخيرت زوجها . . كما تخيرته هو . . وأتت إليه . . تطلب عنده الفكر . . والأدب . . !

■ ■ ■

س - ولكن هل استطاع راهب الفكر . . أن يتكهن . . وأن يفهم بواعث قدوم تلك المرأة إليه . . وكيف يضفى عليها هذه الصفات الملائكية . . وهى امرأة بشرية . . تأتى إليه . . لغاية فى نفسها ربما أدركها راهب الفكر . . ببصيرته الثاقبة . . ؟

لمَ سعت إليه . . لِمَ حاولت إثارته . . لمَ تقاذفته بين جَزْرٍ ومد . . ومد وجزر . . لتتركه هكذا نهباً للفكر وفريسة للوساوس . ألم يفطن إلى كذبها . . خديعتها الأولى . . ثم إرسالها زوجها . . وهذا التلاعب المزرى . . به وبشخصيته المفكرة الرصينة . . هل فطن إلى ذلك . . ولم يدرك فى النهاية أنها ما هى إلا « امرأة . . ؟

جـ - أدرك الراهب الذاهل . . أدرك ذلك . . من « الكراسة الحمراء » . . أدرك مشاعر الأنثى . . السجينة فى سجن التقاليد

.. أدرك من اعترافات هذه المرأة .. من قولها : « آه .. آه .. إنى لأكاد أحبه فى عزلتى النفسية .. لا شىء يخفف من شدتها أو يلطف من وقعها .. آه .. آه .. الحياة .. الحياة .. أريد أن أذهب إلى حيث تدفعنى أهوائى وتقودنى رغباتى .. أريد أن أحلق فى فضاء المغامرة .. لا .. إنى أقعد ها هنا .. كعصفور كسروا له جناحه .. نعم .. نعم .. إنى عطشى إلى أن أصغى إلى رجل .. إلى رجال يقولون لى إنى جميلة .. تواقة إلى أن أرتجف تحت لمسات أيديهم المداعبة .. وأستمع إلى رجائهم المنبعث من قلوب محترقة .. فأتأبى عليهم .. وأتمنع .. أو أسلم بجنون .. وأتصرف فى كيانى .. وفى جسدى .. وفى قلبى .. أمنح نفسى .. أو أسترد ما منحت .. وأهب جسمى .. وأرجع فى الهبة .. أريد أن أعرف « لعبة الحب » نعم .. أنا أيضاً أريد أن أحب .. وأن أكون محبوبة .. أريد أن يداعبنى ويلاعبنى رجل يحبنى حب الجنون .. ولا بأس عندى بعد ذلك من أن يكون مصيرى مصير الزهرة التى تنتزع .. وقد ذبلت من صدر الثوب الأنيق .. الحب .. الحب .. ! »

أدركت المرأة .. المتزوجة .. التى تعيش فى كنف زوج .. وتشتهى الحب .. تنادى الحب .. تتحرق .. تتشوق .. تتلوع .. من سجن .. تكبله أغلاله .. آه .. وآه .. من المرأة .. !

تشعر بالوحدة .. وهى فى أحضان زوج .. تعترف بأنه كامل

الأخلاق . . مستقيم استقامة جديرة بأن تعطى مثلاً لشبيبة الجيل الجديد . . ومع ذلك . . فهى تئن . . وتشكو . . وتبكى . . وتنوح . . وتشعر بالوحدة . . لنرى ماذا تبغى المرأة . . وماذا تريد ، وماذا تقول :

« آه . . إننى وحيدة . . لَكَمْ كان ينبغى أن يكون بين الزوج وزوجته ذلك الحب العنيف . . الذى لا طعم للحياة بدونه . . أريد أن أعرف ذلك الشعور الذى تحسه الجارية المعبودة . . من مولاها . . وأبهر إعجاباً بذلك الرفيق لحياتى . . لطالما حلمت . . وتمنيت أن أحب حباً جنونياً من كل قلبى . . حباً يفقدنى رشدى وصوابى . . إنى الآن أصبحت « مومياء حية» . . !

■ ■ ■

س - إذن . . الحب جنس . . ولا وجود للحب العذرى . . أو الحب الأفلاطونى كما تقول . . وكما جعلت « راهب الفكر » . . يحبها أولاً . . ثم بعد ذلك . . لم يعد هناك حب . . بل رغبة مشتهاة حتى مع راهب الفكر . . إنها تاييس أناتول فرانس ثانية . . ؟

جـ - نعم . . مع الأسف . . فقد اتضح بعد التجربة . . أنه ما من رجل يحب فى المرأة غير المرأة . . ولكن تاييس أناتول فرانس . . قد استطاعت أن تسمو وتضىء . . بل أصبحت مضيئة بنور الفضيلة . . كان جسمها محاطاً بالدنس . . ولكن

روحها كانت مرتفعة طاهرة . . كالزهرة البيضاء الناهضة فوق الطين . . ! ويكفيها أنها كانت ساقطة أمام الناس . . ولكنها فى فضيلتها وطهارتها . . قديسة تفتح لها أبواب السموات . . !

والمرأة هى أيضا طريق الشر . . لم يتمكن راهب الفكر من الصمود . . وأفلحت هذه الأنثى الماكرة فى استدراجه إلى ميدانها . . كيف حدث هذا ؟! إنها المرأة . . التى هى نوع من أنواع أزهار الحب . . التى تنبت فى المستنقعات . . كيف حدث هذا ؟ كيف حدث هذا الحب الأخير من صنعها هى . . الحب الذى هو الجنس . . من صنعها ومن غرس هذه المرأة . . أما الحب الأول الحب العذرى . . الحب الأفلاطونى . . فهو من صنعه هو. . « راهب الفكر » . . !

آه من المرأة . . ذلك الجهاز المشبع بالكهرباء الذى يلقى منذ مطلع الأجيال . . تيارات وموجات لا تلتقطها إلا الغرائز . . فما العطور التى عرفتها المرأة منذ فجر التاريخ – بما تذيعه فى الجو من شذا . . إلا إشارات لاسلكية تخاطب بها حواس الرجال . . وكذا النظرات والبسمات . . والتنهدات وكل ما يهيىء على البعد أثراً يطيش بالعقول . . هنا تبرز مهمة « رهبان الفكر » نعم . . إن بإمكانهم إضاءة النفوس . . لتطلق من صدور النساء المشاعر العالية . . والأفكار السامية . . !

■ ■ ■

س – تقول إن الزواج هو « وادى العميان » . . وإن الرباط المقدس رباط قوى عند الرجل . . ؟

جـ – هو كذلك . . إنه فى الحقيقة رباط الرجل بطفله . . وإن منبع القداسة فيه . . ذلك الدم الذى يجب أن يجرى بينهم نقياً . . فإذا تلوث . . أو تدنس . . أو دَاخَله الشك والارتياب . . فإن الرجل قلما يحتمل ذلك . . وهذا مالا تفهمه المرأة . . لأن كل طفل يخرج من بطنها . . هو لها . . دون حاجة إلى أن تفرز أو تميز بين دم . . ودم . . ولهذا قل أن تدرك معنى لقداسة ذلك الرباط . . لا قداسة عندها لشىء إذا اصطدم بغريزتها . . أو وقف فى طريق شهوتها . . !

■ ■ ■

س – أراك تظلم المرأة كثيراً . . فالمرأة هى القداسة . . والمرأة هى الوفاء . . والمرأة هى الأرض الطيبة . . فكيف تجعلها بهذه الصورة المقيتة . . تجعلها تقول بغريزتها بشهوتها « الحب سيدى ومولاى » . .
إننى أرفض هذا الفكر الخاطىء . . أرفضه رفضاً تاماً . . أرفض أحلام امرأة زوجة وأم . . أرفض لها هذا القول :
آه . . إننى أتمنى أن أنام بين ذراعى هذا الرجل . . يا لى من خاطئة . . إن مجرد التفكير فى هذا خطيئة . . ولكن . . أليس الاعتراف بالخطيئة جدير بالغفران . . ؟ هل هذا هو التحرر فى فكر « راهب الفكر» . . ؟

جـ – إن المرأة النادرة . . هبة من هبات الله . . والمرأة الفاضلة

هى جوهرة أصيلة . . وقد خلق راهب الفكر فى خياله صورة لهذه المرأة . . كان طيفاً من صنعه . . والمشاعر من مشاعره . . وهى امرأة كاذبة ملونة المظهر . . إنه التزييف . . وهذا ما أرفضه أنا . . وكان عالم الحق والفضيلة . . هو ذلك الواجب الذى يجب أن يجده كل مفكر وكل أديب فى كتاباته . . عالم الخير والفضيلة . . عالم الوفاء . . !

■ ■ ■

س - ولكن هذا الرأى لم يكن مسجلاً فى كتابك « تحت شمس الفكر» الذى تمجد فيه المرأة . . وتجعلها تاجاً من الفضيلة . . والنقاء . . والصفاء . . والإلهام . . إن المرأة فى « الرباط المقدس » صورة مكررة من المرأة « المودرن » . . التى صورتها فى مسرحياتك « المرأة الجديدة » . . وهى صورة خاطئة لمفهوم الحرية عند المرأة . . وتغيرت الصورة بعد لقائك بالمرأة الفاضلة . . الزوجة . . وباعتراف منك . . فهل نطمع فى تصوير هذه الصورة المضيئة للمرأة المصرية فى فكرها الجديد . . وفى وعيها . . وفى ثقافتها . . وفى ريادتها . . وفى وفائها . . ؟

جـ - ربما . . ولكن عقيدتى فى المرأة مازالت كما هى . . لم تتغير . . أحبها . . وأخشاها . . وأتمنى البعد عنها . . يعنى . .

« البعد عنها غنيمة » . . فهى دائما شر . . وأعيش بالمثل الذى يقول : « ابعد عن الشر . . وغَنِ له »

■ ■ ■

س - ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن مشاعر وأحاسيس . . ورومانسية « توفيق الحكيم » قد وضحت تماماً فى « الرباط المقدس » . . وإننى أسجل هنا . . وبصفتى الأدبية . . وليس بصفتى الأنثوية . . أن ما كتبه توفيق الحكيم فى هذه الرواية . . من أحلى وأمتع . . وأصدق عاطفة من كل ما كتب . . وأنه فى هذه الرواية . . قريب قريب جدا من المرأة ومن مشاعرها وأحاسيسها . . ويكفى ما بها من تعبيرات الحب الجميلة . . التى لا تصدر إلا عن قلب رقيق الحس . . متوثب الخفقات بين الجنبات . . منادياً . . للحب . . وهاربا منه . . ؟

جـ - صمت . . صمت عميق . . باعتراف صريح من راهب الفكر . . توفيق الحكيم . . ؟

صدى أعمال توفيق الحكيم فى الغرب

هذه المقتطفات .. هى ترجمة لنص ما أورده الناشر الفرنسى من أقوال الصحف .. على غلافى المجلدين الثانى والثالث .. من «مسرحيات الحكيم» التى نشرت بالفرنسية فى ثلاثة مجلدات تضم خمسة وعشرين مسرحية .. فى نحو ١٢٠٠ صفحة .. ظهرت ابتداء من عام ١٩٥٠ فى باريس بدار نشر « نوفيل إيسيسيون لافين ».. وقد سلمها لى « توفيق الحكيم » باليد وطلب منى نشرها فى هذا الكتاب .. الذى كنت أتمنى أن يراه ـ ولكن هكذا شاء القدر..؟



« قالوا عن الحكيم » :

● صحيفة « نور إكلير » شمال فرنسا :

« إن مسرح توفيق الحكيم قد فرض علينا - نحن الغربيين - الالتفات إليه . . إن رسالة توفيق الحكيم . . وإن كانت فى نتائجها النهائية . . لا تختلف كثيراً عما نهدف إليه . . وما برح يشغلنا منذ أعوام . . إلا أنها فى المجال المسرحى تعبر عن عقيدة قديمة للعالم العربى . . عقيدة طالما سخر منها - بغير وجه حق - كثير من الأوروبيين . . إن مأساة الحياة . . لتكشف عن عجز أساسى فى الإنسان أمام مصيره .

● روبير كيمب « عضو الأكاديمية الفرنسية - باريس :

لقد قرأت المسرحيات العشر . . فى المجلد الأول - لتوفيق الحكيم . . بل وأعدت قراءة مسرحيتين منها . . وإنى لأعلق بكل ما فى نفسى من إخلاص . . أنى وجدتها كلها بالغة الأهمية . . وكم أتمنى لو ظفرنا ولو بين الحين والحين . . ضمن ما يرد إلى مسرح « الكوميدى فرانسيز» من نصوص . . بمثل هذه الثروة فى الفكر . . والروعة فى الشكل . . إن توفيق الحكيم . . يملك موهبة « الرمز والمجاز » ويستخدمها بفخامة

.. وإنـى بغير تـردد أؤكد أن القيمـة العليا نراها واضحة فى المجلد كله..

● « مجلة - « رفليه « جنوب فرنسا » :

عشر مسرحيات (المجلد الأول) بعضها سيبقى بين الأعمال الخالدة.. للفن المسرحى..

● صحيفة « لينوفيل ليترير » باريس :

« المسرحيات التسع الأخرى فى « المجلد الأول» بعضها على اختلاف منابع وحيها .. تردد تلك النغمة الخالدة التى تراود المؤلف .. « عجز الإنسان أمام مصيره »

● صحيفة « ليبربلجيك » « بلجيكا » :

بينما « بيتس » فى جوهره .. شاعر .. فإن « الحكيم » ينتمى إلى الأخلاقيين . فهو حريص على تتبع الإنسان فى مهاويه وشياطينه .. إن فن هذا الكاتب المسرحى .. يلقى تحت إضاءة محكمة .. ما فى عصرنا من شخصيات عظيمة .. وحقيرة ..

● صحيفة « لانتريبون دى جنيف » .. « سويسرا » :

« إن هذه المجموعة من (المجلد الثانى) تنقسم إلى ثلاثة أجزاء - المسرح السياسى - والمسرح الفكاهى - والمسرح التراجيدى - إن توفيق الحكيم - لذو صنعة وخيال .. وإننا نأمل لمسرحيات كهذه أن يكون لها نظارة كثيرون .. وليس قراء فقط .. فهى جديرة بالتمثيل فوق مسارحنا..؟ »

● **صحيفة « جازيت دى لوزران » « سويسرا » :**

« لقد كشف لنا (المجلد الأول) عن قوة السخرية لدى الحكيم . . وعلى الأخص :

عن ملكاته الشعرية . . وها هى ذى مجموعة (المجلد الثانى) قد ظهرت . . إنه يكتب بحذق . . ويرسم الصور بدقة وترف . . وبروح فكهة نفاذة » . .

● **صحيفة « ريبلكان لورين » « اللورين » :**

(المجلد الثانى) إنها مجموعة ساخرة . . تنطوى على فلسفة . . لاادعاء فيها . . مفعمة بروح التفاؤل والفكاهة . . المستمدة بعناية من الواقع !

● **مجلة « يوفوليا » « باريس » :**

« إن أغنية الموت فى (المجلد الثانى) تحفة فنية حقيقية . . يجب أن توضع فى مكان الشرف . . من مسرح الثقافة العصرية . . إنها الحكم الدامغ . . على الأحقاد الوحشية . . وعلى المعارك المجنونة . . وعلى الجهل . . والأفكار الخاطئة . . المتأصلة . . التى تطيل أمد الشقاء البشرى - هذه المأساة . . إن هى إلا احتجاج أليم . . على مصير . . يلح فى إنهاء الأكاذيب التى تقتل » .

« قالوا عن شهرزاد »

● **مجلة راديو تايمز « لندن » - ١٨ مارس / ١٩٥٥ :**

مرجريت لينون - وجون جلجود :

فى « شهرزاد » :

هذه القصة القديمة . . أصبحت لها نهاية جديدة . . فى مسرحية «توفيق الحكيم » عن شهرزاد والملك الذى أسرته بقصصها . . ويعرض هنا « ريتشارد بنيت » هذه المسرحية التى سيقدمها البرنامج الثالث . . يومى الاثنين والجمعة . . بعد أن نُقلت إلى الإنجليزية :

تبدأ مسرحية « شهرزاد » لتوفيق الحكيم صباح اليوم التالى . . للألف ليلة وليلة . . وقد قصت جميع الحكايات المعروفة . . ولذلك فإن الملك شهريار . . متبرم . . ضجر . . يخشى رعاياه . . أن يكون قد أصِيب بالجنون . . ويرى الوزير . . أن حيرة الملك . . مبعثها الحب لزوجته شهرزاد . . التى يحبها الوزير نفسه . . حباً شريفاً . . ؟

أما الملك . . فهو فى نظر شهر زاد . . مازال الطفل المشاكس . . الخطر أحياناً . . الذى يردد : « ليس فى الحياة من جديد . . استنفدت كل شىء . ما قيمة عمرى الباقى ؟! لقد استمتعت بكل شىء وزهدت فى كل شىء » . . وهو قد شبع فعلاً من حياته الحيوانية العنيفة . . وملها . . وأخذ يبحث عن الحكمة فى الأشعار . . إنه يريد أن يرى ما هو كائن . . وما هو حقيقى فى الوجود :

- « دعك من الخيال يا قمر . . مضى ذلك العهد الساذج . . اليوم نريد الحقائق . . نريد الواقع . . نريد أن نرى بأعيننا . . وأن نسمع بآذاننا . . » .

إن مسرحية « شهر زاد » غنية بتفاصيل أساطير الشرق . . ويزين

غموض الشرق فيها . . ويزيد عليه . . ما تحويه المسرحية من التعقيد النفسى . . كما نفهمه فى الغرب . . والحوار الذى يدور بين شهر زاد والملك . . والوزير . . وقد لعب أدوارهم . . كل من « مرجريت ليتون» و « سير جون جلجود » و « كارلتون هوبز » هو حوار . . متألق بالذكاء والروح . . والملك . . على الرغم من ماضيه المخضب بالدماء . . مخلوق بائس . . كثير التأمل . . والوزير الحائر بين فكرته المثالية . . عن حبه لشهر زاد . . وبين ولائه لسيده . . كل ذلك . . لو أنه حدث فى عصر آخر . . وفى بيئة أخرى . . لكان من المفيد للرجلين أن يستشيرا طبيباً نفسياً . . ؟

أما « شهر زاد » فهى فى مثل صلابة « آن هوايت فيلد » فى مسرحية «شو » الإنسان . . والإنسان الأعلى . . إلا أن سلوكها أكثر انطلاقاً . . فهى تتخذ عشيقاً زنجياً . . فى غيبة الملك . . ؟

وهذا العمل بعينه . . كانت قد اقترفته زوجة سابقة . . وهو الذى دفع الملك إلى ممارسة هذا النظام الرتيب . . « الزواج فى المساء . . وإعدام الزوجة فى الصباح » . . ذلك النظام الذى لم يخل به إلا موهبة «شهر زاد » القصصية . . ولم تعد تخشى الاضطرار إلى سرد القصة الثانية بعد الألف . . فقد قالت لعشيقها العبد عن الملك : « إنه قد ألقى وراء ظهره . . بكل تجاربه الحسية . . والحيوانية » !! . . ويسألها العبد : وأين هو الآن . . ؟ (وهذا العبد رجل بسيط - لا يداوم سؤالها عمن تكون - كما يفعل الملك والوزير) . .

فتجيب : « هجر الأرض . . ولم يبلغ السماء . . فهو معلق بين الأرض . . والسماء . . » .

وفى تلك اللحظة . . يكون الملك فى « خان أفيون » مع الوزير . . حيث يعلمان بخيانتها . . ويقوم المشهد الختامى المتوتر . . ما يبدو لأول وهلة . . أنه موقف تقليدى . . ولكن ينتهى نهاية غير تقليدية وتُتْرَكُ الشخصيتان الباقيتان . . لتشقا طريقهما فى الحياة . .

- جريدة التايمز - لندن ٢٢ مارس / ١٩٥٥ :

« شهر زاد . . لتوفيق الحكيم »

تتناول « شهر زاد » التى أذيعت مساء أمس . . فى البرنامج الثالث . . من إخراج « مستر كريستوفر سايكس » أسطورة « ألف ليلة وليلة » فكرة طريفة : فى الليلة الثانية بعد الألف . . حين تكون « شهر زاد » قد فرغت من سرد كل قصصها . . ويكون إعدامها . . قد أرجىء إلى حين . . ويكون لهذه الأقاصيص تأثير مطهر على الملك شهريار . . فكأنه قد ولد من جديد . . فيقرر نبذ الحياة الشهوانية . . والحيوانية . . حتى فيما يتعلق بشهر زاد نفسها - ويمضى يحاول البحث عن أرض الواقع . . التى تبينها أول ما تبين . . من قصص شهر زاد نفسها . . ويقوده بحثه المحير . . مصحوباً بموسيقى غريبة . . من وضع . . « مستر نورمان بركاى » - إلى الصحراء الشاسعة . . هو . . ووزيره قمر . . وأخيراً . . إلى مجلس الأفيون . . ويعترف شهريار أثناء رحلته بعلة قلقه . . وعدم استقراره : « اليوم نريد الحقائق . . نريد الواقع . . نريد أن نرى بأعيننا . . وأن نسمع بآذاننا . . ! »

وقد استطاعت مسرحية الحكيم الأسطورية فى ترجمتها الممتازة التى قام بها « مستر سايكس » أن تجمع خلال بساطتها . . الجميلة . . دون الانهيار تحت وطأتها - بين روح السحر . . والتأمل الفلسفى . . والإحساس بالمذلة العميقة أمام الأشياء الغامضة التى تحاول كشفها . . قد جعل من الإصغاء إليها تجربة نادرة . . على أنه لا يمكن للعقل الغربى . . إلا أن يصدم بما فيها من غموض مقصود . . ورمزية غير مألوفة . . ففى حين أن القمر عندنا . . « مؤنث » نجد هنا . . أن الوزير « قمر » « مستر كارلتون هوبز » الذى يعنى اسمه القمر . . متيم بحب « شهر زاد » التى ترمز للشمس ويموت القمر « قمر » بطريقة محيرة لأنه لايستطيع المضى فى إيمانه بأن الشمس تستحق العبادة . . فى حين أن سيده « الملك شهريار » يجب أن يستأنف بحثه عن الحقيقة . . معلقاً بين الأرض . . والسماء . . ؟

المثلون . . اختيروا من الممتازين . . وأدوا أدوارهم خير أداء . . وستعاد إذاعة المسرحية . . يوم الجمعة . . وقد أدى « سير جون جلجود» دور شهريار أداء . . سيظل فى الذاكرة . . بتعبيره عن القلق . . والشك اللذين ينتابان الطاغية الذى زهد السلطان . . والجمال . . كما أبرزت « مس مرجريت ليتون » ما فى الملكة الجريئة « شهر زاد » من قوة المقاومة الذكية الفطنة . . »

● « شهر زاد » على مسرح « الكوميدى دى بارى » باريس/ نوفمبر/ ١٩٥٥ - للكاتب الفرنسى « الكسندر أرنو » عضو أكاديمية « جونكور»

لا ينبغى أن ننتظر من هذه المسرحية . . صوراً سهلة للشرق . . مما

يخطف البصر . . فتوفيق الحكيم . . الذى وضعها بالعربية . . هو نفسه شرقى . . فسوء الفهم إذن . . أو الوقوع تحت تأثير سحر البلاد البعيدة . . أشياء لا توجد بالنسبة إليه . . فهو إذن يدخل مباشرة فى صميم قصص « ألف ليلة وليلة » كما ندخل نحن فى حكايات « أمى الأوزة » المألوفة لدينا . . فما من « ديكور » مفتعل . . أو متعمد للإدهاش يخفى عنه قيمتها الحقيقية . . وعمقها الإنسانى . . فهو لا يكتشفها من الخارج . . ولا من السطح . . ولكن يغوص فيها . . وهى التى أرضعته . . وغذته . . أباً عن جد . . فهو إذن . . يتمتع بسلطة وحرية فى اللعب بمادة ليست غريبة عليه . . يعجنها . . ويكيف أشكالها . . ويوفقها مع الأنغام الحديثة . . التى يملك منابعها . . ويستخدمها بأبسط . . وأدق وسائلها .

إن شهر زاد . . قد بذلت – فى مبدأ الأمر – كل ما لديها من مواهب . . وخيال قصصى . . لتنقذ حياة عذارى – كان السلطان شهريار يذبحهن كل صباح – غيرة منه وحقداً – بعد أن خدعته زوجته مع زنجى . . ولكن « شهرزاد » انتهت بالوقوع فى الشرك الذى نصبته بأن أحبت ذلك الذى اعتبرته فى أول الأمر . . جلاد بنات جنسها . . على أن قصصها . . وما أحدثته من فتح للنوافذ على العالم . . قد غيرت شهريار وجعلته يصبح . . رويداً . . ريداً . . رجلاً آخر . . يملؤه القلق والرغبة . . فى أن يسمو على نفسه . . وأن يخترق حجب الأسرار . . وأن يحيط معرفة . . بكل شيء . . وهنا عقدة المأساة . . فإن هذين الكائنين . . اللذين يواجه أحدهما الآخر . . اليوم ، لَمْ يَعُدَا هما نفس

الشخصين اللذين عاشا أول الأمر . . إن توفيق الحكيم . . الشاعر . . والكاتب المسرحى . . عالج هذا الموضوع الكبير . . الذى يمس جوهر الإنسان بآماله . . ويأسه . . معالجة مبعثها قوة داخلية . . لا تنضب . . وهو لا يستسلم أبداً فى التعبير لبريق الألفاظ . . ولا يستخدم غير أبسطها . . محملاً إياها من المعانى . . ومما لا ندرى . . من أى سحر . . ما يضيئها من الداخل . . إنه قد شيد أثراً فنياً من النور . . دون أن يلجأ إلا إلى - ألوان من الظلال . .

« قالوا عن بيجماليون »

● بيجماليون على مسرح « الموزارتيوم » « سالزبورجر فولكزبلات » فى ٨ ديسمبر / ١٩٥٣ .

إن تمثيل مسرحية « بيجماليون » يعتبر كسباً فكرياً « للموزارتيوم » وللحياة المسرحية فى النمسا . . وتوفيق الحكيم . . المؤلف المسرحى المعاصر . . لا ينسى فى مسرحياته مسائل العصر . . وهو قد جعل من بطل الأسطورة فى مسرحية « بيجماليون » بطل مأساة - عكس ما فعله «برنارد شو» من معالجته الموضوع على النحو الكوميدى - وتتميز مسرحية توفيق الحيكم . . بقيمتها الشعرية . . وثروتها الذهبية . . وكان إخراج «الدكتور جيزاريش» لهذه الرواية صارماً . . بالغاً فى الصرامة . . غير أن تلك الطريقة فى الإخراج . . لم تعق الممثلين . . من إظهار جهدهم ووضع الموسيقى «جيرهارد فمبرجر» المسرحية فى إطار موسيقى ملائم . . كل الملاءمة . . أما توزيع الأدوار . . فربما كان من الأنسب أن يختص الأساتذة الكبار بأدوار الآلهة فى القصة . . فيقوم « كارل بلوم » مثلاً بدور

«أبو لون» إلى جانب هيرتا فيبر فى دور «فينوس» . . ولقد أبدى الجمهور الذى ضم كل الشخصيات البارزة فى المجتمع . . بمدينة . . «سالزبورج » وعلى رأسهم . . محافظ الإقليم « دكتور كلاوس » أبلغ تحمسه وإعجابه بالمسرحية والتمثيل .

● « فينز زايتونج » فى ١٢ ديسمبر سنة / ١٩٥٣ :

كان يبدو أن تمثيل « بيجماليون » لتوفيق الحكيم على المسرح الأوروبى . . سيواجه منافساً خطراً هو . . « برنارد شو » الذى عرض لنفس الأسطورة القديمة . . ولكن « توفيق الحكيم » عالج موضوع الأسطورة الإغريقية القديمة . . بطريقة خاصة . . مستقلة . . أصيلة . . ومبتكرة . . وهنا كانت المفاجأة . . فقد نجح المؤلف المصرى . . فى إيجاد الصلة المباشرة بالمنبع الإغريقى . . بغير الالتجاء إلى الوسائل المفتعلة – التى يتوسل بها كثير من الكتاب الغربيين . . وربما كان مرجع هذا . . إلى أن الشرق كان له اتصال وثيق بالكلاسيكية الإغريقية – قبل أوروبا . . ولقد أبرز المؤلف المصرى . . فكرة الكفاح الإنسانى الخالد فى الخلق . . هذا الكفاح الذى لا يقنع أبداً بما تم . . كل ذلك فى لغة تهمس بالتأمل والشعر . . وفى شكل جديد من الأسلوب الفنى . . ؟

ولقد قام بعرض هذه المسرحية . . ممثلو أكاديمية « الموزارتيوم » على نحو يسمو على المعتاد . . فنهض « كارل بلوم » بدور « بجماليون » فى صراعه . . بين عمل الفن . . والحياة . . كما نهضت . . « إيريكا ليزا كوفسكا » بدور « جالاتيا » الصعب . . فى حين أن « مرجريت جوربهوفر » و « لوتزهابركورن » قد لعبا دورى « إيسمين ونارسيس » على

نحو آلى . . أما « هيرتافيبر » « وت . ويسلر » فقد ارتفعا حقاً إلى مرتبة آلهة الأوليمب . . وكان إخراج الدكتور « جيزاريش » متناسقاً رائع التأثير . . وموسيقى « جيرهارد فمبرجر » بارعة فى الإيحاء . . وقد كان تصفيق الاستحسان . . طويلاً . . حاراً . . ؟

● « داى بريس » فى ١٢/ ديسمبر ١٩٥٣ م .

كان لقاء مهما ومفيداً مع الكاتب المصرى المعاصر . .« توفيق الحكيم» ذلك العرض الأول الذى شاهدناه على « مسرح « الموزارتيوم » الكبير . . « لبيجماليون » وهى مسرحية فى أربعة فصول . . ألفها الحكيم . . بموهبة شعرية عالية . . كشف فيها عن الإنسان فى سخطه الخالد . . وخلافه الدائم مع الآلهة . . وكان إخراج « جيزاريش » سليماً متناسق العناصر فى إطار المناظر الأنيقة التى صممها « جوستاف فارجو» والموسيقى التى وضعها « جيرهارد فمبرجر » وكان استقبال المسرحية والمؤلف الحاضر . . على أقوى ما يكون من الحماسة . .

● « فينر كورير » ٨ ديسمبر / ١٩٥٣ م :

كان العرض الافتتاحى . . لمسرحية « بيجماليون » « لتوفيق الحكيم » فى القاعة الكبرى لموزارتيوم . . حدثاً « ثقافياً واجتماعياً شاهدته الشخصيات البارزة فى مدينة « سالزبورج » وإقليمها . . والمسرحية . . عميقة الموضوع . . تتخللها فواصل . . ملطفة . . متماوجة من جوقة الفتيات التسع . . اللاتى يمثلن عرائس الوحى . . تحت أنظار «فينوس» و « أبولون » المشرفة على ذلك الصراع بين الفن . . والحياة . . هذا الصراع الذى انتهى بموت « بيجماليون » وجعل الآلهة تقول :

« وإن البشر . . يحطمون ما يخلقون من جمال . . ليبدأوا من جديد . . »

وقد استطاع إخراج الدكتور « جيزاريش » التعبير عن مأساة الفنان العبقرى . . فى صراعة الخالد . . بأداء متسق فى مجموعة . . وقد حيا الجمهور . . الذى كان يملأ المكان – المؤلف . . والممثلين . . بحماسة بالغة . .

● « ديمو كداتش فولكربلات » فى ٨ ديسمبر / ١٩٥٣ :

« بيجماليون » الفنان الملهم . . فى خلافه مع نفسه . ومع العالم . . إنها ليست حالته وحده . . بل الذى يتكرر دائماً ، مادام على الأرض فنانون . . وقد أدى « كارل بلوم » شخصية المثال « بيجماليون » أداء كشف عن مأساة العبقرية . . كما أدى « لونزهابدكورن » دور «نارسيس» أداء . . جمع بين الجمال والبساطة . . وكانت « مرجريت جروبمولر » ساحرة فى دور « إيسمين » أما الاستقبال الذى قوبلت به المسرحية من النظارة فكان رائعاً . . وقد تلقى المؤلف شخصياً . . (وهو يعتبر خالق المسرح الفكرى فى الأدب العربى) هتاف الاستحسان من الجمهور المحتشد فى الصالة . .

● « سالزبوجر فولكر ايوتنج » فى ديسمبر / ١٩٥٣ م .

اجتمعت فى مساء الأحد كل شخصيات الحياة الثقافية فى «سالزبورج» لتشاهد العرض الأول باللغة الألمانية لمسرحية « بيجماليون » لتوفيق الحكيم . . فى القاعة الكبرى « للموزارتيوم » . . وقد امتلأت

بالجمهور . . وموضوع المسرحية عميق . . موضوع يمس الحد الفاصل . . بين ما هو إلهى . . وما هو إنسانى . . وقد أخرجه الدكتور «جيزاريش» فأبرز ما فى داخل الفنان العبقرى من مأساة فى كفاحه الخالد . الذى لا عزاء فيه . . وقام « هانز هانبزولر » بدور « أبولون » فأظهر ما فيه من علو ممزوج بالسخرية . . وقامت « هيرتافيبر » بدور «فينوس» فأظهرت ما فيه من نضج وتجربة . . أما الملابس والمناظر . . فتذكر بالثناء « لجوستاف فارجو » .

● « سالزبورجر تاشر شتن » فى ٨ ديسمبر / ١٩٥٤ م :

« بيجماليون » لتوفيق الحكيم . . مسرحية فى أربعة فصول . . تدور حول حياة الفنان الإغريقى . . الذى أبدع تمثالاً . . ووهبت له الآلهة . . الحياة . . وسحر مسرحية « الحكيم » لدى جمهور أوروبا . . يقوم بالأخص . . على ذلك التقابل بين العالمين . . العالم الإنسانى . . والعالم الإلهى . . ! وقد وضع « جيزاريش » هذه المسرحية فى إطار من الإخراج الدقيق . . تجنب فيه . . كل ما يمس نواحى . . « الميلودرام » حدود « الكوميديا » وقد فهم ممثلوهـ أغراضه . . ومراميه . . فلبوا . . ونجحوا . . وكان المؤلف حاضراً بشخصه . . فاحتفل به احتفالاً . . حاراً جداً . .

مسرح توفيق الحكيم الفلسفى

للناقد الفرنسى « جورج ألبير أسنثر »

عن مجلة « كرتيك » العدد ٦٦/باريس/١٩٥٢

بدأ الغرب . . يكشف الأدب الجديد الذى انبثق من النهضة العربية الإسلامية . . وأجمل ما يراه من هذا الأدب . . هو من غير ريب . . نزعته الفريدة نحو الوحدة الشاملة . . والتركيب التام . . إن الجهد الصادق . . الذى يبذله الشرق . . على هدى من موازينه وتقاليده الموروثة - لكى يساير ركب التاريخ . . وحاجته الملحة إلى عدم إنكاره . . أو الخضوع لمشيئته . . كل الخضوع . . كما كان شأنه معه من قبل . . نقول : إن هذا كله . . لم يكن ليخنق الأصداء التى تتردد عن تراثه القديم . . هذا التراث الذى نما على أرضه منذ آلاف السنين . . إن نهضة الشرق الجديدة . . تتقدم مدفوعة بروح مفعمة بالإخلاص واليقين . . وإن جاهدت وتعثرت فى بعض الأحيان . .

و « توفيق الحكيم » الذى لم يتسن للقارة الأوربية . . أن تعرف أفكاره حق المعرفة . . ينبغى أن ينظر إليه من هذه الزاوية . . إنه بغير ريب . . المفكر المجدد الذى يوشك أن يكون الوحيد فى مضماره . . هذا الفنان المسرحى . . قد أضاف إلى الأدب العربى صورة جديدة من صور الفن . . ذلك لأن المسرح « الفلسفى » . . يكاد أن يكون مجهولاً من الحضارة

الإسلامية . . قبل « توفيق الحكيم » وليس هنالك ما يشبهه فى هذا الباب . . إلا المسرح المعروف بالنو . . (« المسرح اليابانى القديم ») والمقامات التى عرفت فى الأدب العربى والفارسى . . قد سمت «بالحريرى » فى القرن الحادى عشر إلى المجد . . إلا أنها لا تتصل إلا من بعد . . بما نسميه اليوم « بالتمثيليات المسرحية » والأراجوز وهو فى صميمه . . تركى النشأة . . لا يعدو أن يكون مسرحاً من الظلال والأشباح . .

البلاد الفارسية وحدها . . تستطيع أن تفخر على « تراث الأدب العربى » على الأقل . . بما لديها من مقطوعات « التازياز » التى ترجع إلى عهد . . يعد قريباً . . والتى تشبه أن تكون لوناً من الأسرار الصوفية الغامضة . . وتدور حول مصرع الإمام الحسين ، هذا . . إلى أن هذه المقطوعات قد اختفت فى أوائل القرن الحالى . . عندما انهار كيان العصور الوسطى . . الذى طبع بلاد الفرس بطابعه . . حتى عهد قريب . . واتصل المسرح الذى يتوفر المؤلفون الإيرانيون على خلقه بالأدب العربى حيناً . . وبحكايات من التراث القومى . . لم تزل تمثل على المسارح الإيرانية . . منذ القرن التاسع عشر . . حيناً آخر .

إن الدراما الحقة . . والتراجيديا على وجه الخصوص . . تبدو على جانب من التعارض مع روح العقيدة الإسلامية . . وذلك أنها تقتضى وجود مبدأ ثورى على نحو من الأنحاء . . كما أنها تبتعد عن العقيدة الدينية . . بُعداً ما . . وحين يصطدم الإنسان بالقدر . . يتجدد فى نفسه الأمل . . بأنه ربما سنحت فرصة . . لتغيير قدر محتوم . . بفعل

من أفعال الإرادة الحرة (التراجيديا الحقة تنبع من الدين . . ولكنها لاتزدهر . . حتى توضع المقدسات نفسها . . موضع الشك والسؤال).

وهناك أمثلة عديدة . . على صدق هذا القول . . فلن ندرك حقيقة « هاملت » إذا جردناه من . . « أزمة الوجود الإنسانى » ولم تكن « فيدرا » لتوجد . . لو لم يشتعل القلق فى قلب « راسين » جوهر الدين الإسلامى فى التسليم والاستسلام . . والنزعة لمشيئة عالية . . ومن ثم لم يتلاءم العنصر التراجيدى . . مع . . روح هذه العقيدة . .

يضاف إلى هذا . . عقبة تتمثل فى اللغة العربية نفسها . . فهى تنقسم إلى « لغة للأدب » وأخرى « للكلام » تختلفان فيما بينهما . . اختلافاً شديداً . . وقد ظلت الآداب العربية . . قروناً طويلة . . وقفاً على خاصة « العلماء » تتنكر لكل شكل من أشكال الفن . . يراد به الاتصال بالجماهير . . اتصالاً مباشراً . .

الأزمة التى يمر بها . . العالم الإسلامى اليوم . . تسمح بقيام . . مسرح أصيل . . تضطرب على خشبته ألوان الصراع والقلق التى تصاحب نهضته الحاضرة ، وتوافق وعيه الجديد . . وإلى جانب التأثير الغربى المحتوم عليه . . هناك تأثير من نوع آخر . . مستمد من الفكر الإسلامى . . نفسه . . فى صوره الجزئية . . النبيلة . . وليس يخلو من مغزى أن تجد الكتاب المصريين المحدثين يولون وجوههم نحو أرض اليونان . . ربما لأنهم يريدون أن يسيروا فى الطريق الشاق الذى قطعته حضارة البحر المتوسط . . حضارة التركيب والوحدة الشاملة . . فيجددوا عهداً . . جعلت فيه بلاد البطالمة من نفسها حارساً أميناً . .

على تراث الإغريق . . وصانته من الاندثار . . ويذكرنا بعهد . . ازدهرت فيه حضارة الإسلام . . يوم أن نهلت من . . ينابيع « الثقافة الإغريقية » .

وثمة عامل ثالث . . لا يمكن أن نغفله من حسابنا : فعلى شاطىء النيل . . شعب . . طالما ذاق الظلم والهوان . . تتدفق من بين شفتيه ثروة خصبة من الأساطير والنوادر والحكايات . . وتمتزج بوجدانه الحى . . وشعوره الرقيق . .

بهذه النظرة . . يمكننا أن نقدر قيمة مسرحيات « أهل الكهف » و «شهر زاد » – و « سليمان الحكيم » فهى إلى جانب قيمتها الجمالية الخالصة . . تقدم لنا تفسيراً درامياً للأزمات العميقة التى يعانيها العالم الإسلامى اليوم . . وللأحلام التى تراود مصر . . من قديم الزمان . . إنها تمتزج فى وحدة مبهمة . . بعض الشىء . . بين عوالم لا تزال متمايزة . . فتؤلف بين المقدسات . . والمحرمات . . وتجمع بين ما يملكه الشعب . . وبين ما تستأثر به – خاصة المثقفين . .

ترجع المسرحيات الأولى . . التى كتبها « توفيق الحكيم » إلى ما يقرب من نحو ثلاثين عاماً مضت . . وقد وضع قبل الحرب الأخيرة . . رواية طويلة جعل موضوعها . . « البعث الجديد فى مصر » وأسماها . . «عودة الروح » وأما أعماله المسرحية التى نشر جانب كبير منها . . فى اللغة الفرنسية . . فهى تقوم على نظرة رحبة الأفق . . للنهضة الفنية . . فى «البلاد العربية » وليس هذا وحده ما يلفت النظر فى هذه المسرحيات الفلسفية . . فتوفيق الحكيم . . يرى أن النهضة واحدة . . من حيث

اللسان العربى . . متعددة من حيث استعدادات كل شعب ومواهبه . . هذه النهضة يجب أن تعبر عن الأهداف الجديدة . . للأمة . . كما يجب أن تترجم عن الأحلام التى داعبت روحها- آلاف من السنين - حتى صبغت كيانها الفكرى . . بصبغة مميزة . . وطبعت شخصيتها . . بطابع فريد . . ويعرض كاتبنا . . لوجهة نظره . . فى كتابه « تحت شمس الفكر » حيث يقول :

« من هذا النيل . . خرجت أساطير البعث . . وفى هذه الأرض الجميلة . . الدائمة الخصب . . نشأت فكرة الخلود . . وقتال « العدم » تشبثاً بهذه الأرض المحبوبة . . التى لم تخلق الآلهة . . جنة سواها . . »

ألم يكن من هم هذه البلاد . . أن تكافح كفاحاً متناهياً ضد الزمان والمكان . . وأن تدخل فى معارك هائلة . . وإن تكن غير مجدية . . لتنتصر على كل الحدود والقيود . . ؟ أليس هذا ما فعلته فى عهد الفراعنة الذين بنوا الأهرام . . وتشهد أجسامهم الباقية . . بشوقهم الملتهب . . إلى الخلود . . ؟

ألا نستطيع إذن . . أن نرسم فى أذهاننا . . صورة مصرية خالصة للمأساة « التراجيديا » . . وأن نتمثل الدراما . . التى تعبر عن هذا الصراع القاسى . . بين الإنسان من ناحية . . وبين الزمان والمكان من ناحية أخرى . . ألا تترجم من هذا الجهد . . الذى لا يهدأ ولا يستريح . . على نحو ما تصورت يونان القديمة . . تلك اللعبة الجامعة . . بين الآلهة . . وبين المخلوقات . .

الحق . . أن ذلك من شأنه أن يؤدى بنا إلى مشكلة . . رئيسية ،

فمثل هذا الصراع مع الزمان . . يتخذ بسهولة صورة الإنكار للتاريخ . . كما يصبح إغراء خطراً . . بالانطلاق والخلاص . . وبالحياة فى ظل وجود . . تسيطر عليه مطالب . . وحاجات ملحة . . وهكذا . . ينبثق عنصر المأساة . . انبثاقاً ذاتياً . . وكان من ذلك أيضاً - ولم تغب هذه النقطة عن بال كاتبنا - محاولة الربط . . بين الأدب وبين حياة الشعب ، حيث يجعل من الأسطورة - لا البلاغة - مصدر وحيه وإلهامه . . ويتيح الفرصة . . للمقدسات السماوية لكى تواجه ألواناً من المحرمات . . مواجهة واقعية مباشرة . .

هكذا . . وجدناه . . يعنى عناية بالغة . . بقصص - « ألف ليلة وليلة » وبالقرآن . . ويعدهما مصدرين خطيرين للإلهام الفنى . . ولقد تأثر فن « توفيق الحكيم » فى مراحل تطوره الأولى . . بمؤثرات عديدة عن رمزية « مترلنك » التى انقضى عهدها . . إلى « الدراما البرجوازية » وهذا ما جعلنا نكشف عن مذهبه الأصيل . . فى ثلاثة أو أربعة من مؤلفاته الخالدة . . « شهر زاد » « أهل الكهف » « سليمان الحكيم » كما دفعنا أيضاً إلى النظر فى مسرحيتين . . تنفردان بطابع خاص له هما : «أوديب » و « بيجماليون » .

من هذه الناحية . . نرى صاحب « المسرح العربى » قديراً فى إنشائه لمسرحيات . . تعتمد على الحركة الداخلية . . وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقصة التى نبعث منها . . وما الأسطورة ها هنا . . إلا الرداء الخارجى . . فتوفيق الحكيم . . يبحث فى طبيعة الحياة . . ويتفكر فى ماهية الوجود . . على نحو لم يسبقه إليه أدب قديم أو حديث . . ؟

وتسنح المناسبة الطيبة « لتوفيق الحكيم » عندما يردد حيرة الشرق فى سؤاله الخالد : « هل ينبغى أن نرى الوجود كأنه حلم من الأحلام ؟ وكيف يتسنى لنا الخلاص فى هذه الحالة . . وما عسى أن تجدى فى عصرنا الراهن حرية الحالمين . . وهى تحمل فى تضاعيفها الغربة والخطورة . . والمفارقة . . ؟ وما قيمتها بالقياس إلى الواقع والتاريخ ؟! »

الهدف الأساسى الذى يشغل « أصحاب الكهف » ويعصر قلب «شهريار » هو :

« التحرير من سلطان الزمان . . والانطلاق من سجن المكان » . . هم يتمنون لو استطاعوا أن يخلصوا من طغيان أفعالهم . . يعذبهم الشوق إلى الحياة . . فى ظل عالم . . لا أثر للظلم فيه . . بل إنهم يمقتون فكرة الحد « نفسها » . . ويتوقون إلى لقاء الموجود الكامل . . الذى لا يحده قيد . . بعيداً عن أسوار هذا العالم . . وضروراته . .

لا أثر للتصوف فى هذا الاتجاه . . إن أبطال « توفيق الحكيم » يرتابون فى « القوة الغيبية » أبلغ الريب . . وليس من همهم . . أن يفنوا فى مبدأ روحانى علوى . . فلا يزال الإنسان يواجه مصيره الغامض القاسى . . فلا يجنى من هذه المخاطر غير حال عجيبة من التناقض . . تجعله معلقاً . . بين السماء والأرض . . ولا تهبه الحرية إلا إذا تكلف نوعاً من اللامبالاة . . فى جو من السخرية المرة . . التى تقضى عليه بالموت . . والضياع . . »

هكذا نجد أنفسنا إزاء مسرح . . تدور مآسيه فى دائرة من العذاب الفظيع . . وتسعى شخصياته إلى مُثُلٍ . . بعيدة المنال . .

ليس ينبغى أن نضل الطريق على أى حال . . فالصراع الناشب بين « الوجود الأسطورى » والوجود التاريخى . . لا يسيطر على زمام هذا المسرح . . إلا أنه يعبر عن الأزمة التى تسود العالم العربى والإسلامى فى القرن العشرين . « توفيق الحكيم » يعيش فى صميم المشكلة التى يكابدها الشرق الحديث . . « فالمسرح لديه . . يدور حول مصير الفكر الذى يريد أن يكون إنسانياً . . !»

والحق أن هذه المسرحيات . . تنطوى أخيراً على ميزة . . ذات دلالة هامة . . وأن كاتبها . . لتمتد سخريته . . فلا ترحم أحداً . .

إنها تجرى على لسان شخصياته عذبة حينا . . مُرة فى أغلب الأحيان . . تتهكم بنفسها . . على نفسها . . على طموحها وعلوها . . واعتدادها بنفسها . .

من هذه الناحية . . يعد « توفيق الحكيم » شاهداً على الاتجاه فى كيان مصر الناهضة . . وعن موقفها فى العصر الحديث . . بين الأعاصير التى تثور من حولها . . وتوشك أن تمزقها . . واختيارها السير فى موكب الزمن والتاريخ . . معرضة عن الحياة . . بين أحلام الخرافة والوهم القاتل . .

ولعل العالم العربى قد أدرك الصواب حين اهتم بهذه المسرحيات . . وتبين خطرها العظيم بالنسبة إليه . . فقد وجد فيها مرآة صادقة للأزمات العميقة . . التى تضطرب فى وجدانه . . والآمال العزيزة التى تخالج قلبه . .

لقد كان الهدف الحقيقى من « أهل الكهف » هو إبراز المشكلة الأساسية . . « مشكلة الزمن » . ؟

ولاشك . . أن هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف . . قد تحرروا رغماً عنهم من سلطان الزمان . . وسطوة التاريخ . . إنهم يحاولون أن يتحينوا هذه الفرصة . . التى أتاحها لهم القدر . . أو « الأسطورة » إن شئنا . . (وهى فرصتهم إلى الخلود) إنهم يستيقظون من نومهم . . بعد ثلاثة قرون . . فيحاولون أن يستهينوا بقدرة الزمان . . وأن يروا فيه شيئاً عقيماً ضائعاً . . بل يذهبون لإنكار وجوده البتة . . وهكذا نجدهم يدافعون بسخرية مرة عن الفكر السرمدى . . والخلود الأسطورة . . اللذين تنفيهما . . حقائق الواقع . .

ما قيمة الحقائق العقلية التى يتذرع بها « مرنوش » . . ؟ وما جدوى الصرخات اليائسة . . التى يطلقها « ميشيلينا » هذا العاشق الخالد . . « لبريسكا » الفانية . . ؟ وهل يغنى وجود محبوبة جديدة . . تحمل اسم جدتها التى ماتت منذ ثلاثة قرون . . كما تحمل ملامح وجهها . . ؟ هل يغنى عن الواقع شيئاً . . ؟ إن « يمليخا » وهو الراعى الساذج البرىء لا تخدعه انفعالات الشعور عن الواقع الملموس : « إننا أشقياء . . أشقياء»! نحن ثلاثتنا . . وقطمير معنا . . لا أمل لنا فى الحياة . . إلا فى الكهف . . « فلنعد إلى الكهف . . هلم يا مرنوش . . فلنذهب إلى عالمنا . . »

ثم يقتنع بدوره . . فى شخص مرنوش المفكر . . حيث يقول :

« إن مجرد الحياة لا قيمة لها . . إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض . . وكل صلة . . وعن كل سبب . . لهم أقل من العدم »

وهكذا يقضى على الوهم . . الذى طالما داعب خيال الشرق . . وزين له أنه يمكن أن يحيا حياة كأنها الأسطورة السرمدية . . حياة خارج حدود الزمان . . ثم يأتى دور التحول الأخير فى نفس العاشق المسكين . . « ميشلينا » إن الأميرة بريسكا . . التى تشبه أخرى أحبها . . قبل أن يعانقه النوم الطويل . . لا يمكن مع ذلك أن تشبهها كل الشبه . . فسرعان ما ينكشف له وجه الضلال فى حبه الجديد . . ها هنا حكم صادر بالموت على الفكرة الميتافيزيقية الكبرى . . التى عرفت عن الشرق العربى الإسلامى . . وعن نزعته التى تميل به إلى إنكار الجزئيات . . وشرعته التقليدية التى تجعله ينظر إلى الظواهر الواقعية وكأنها حلم من الأحلام . . ويعد الحقيقة الخالدة . . لمبدأ غيبى . . غير منظور . . وكأنها الحقيقة الوحيدة بهذا الاسم . . فإذا نظرنا من الزاوية الجديدة . . التى يقدمها لنا « توفيق الحكيم » وجدنا أنه لم يبق لنا غير عالم التاريخ ، وغير الزمن الذى تحدده الولادة الأولى . . والموت الأخير من طرفيه . . لن تستطيع الأسطورة أن تقف أمام سلطان الزمن والتاريخ « أى الواقع » وإن حسبت أنها انتصرت عليه فقد خدعت نفسها بالباطل . . ولا أمل للإنسانية إن أفلتت من أسر الزمان . . وسوف يحكم على مصر بالفناء . . أو تفيض لها الحياة . . تبعاً لموقفها من التاريخ . .

وجملة القول : أن « أهل الكهف » تقرب بمعطياتها من موضوع أكبر من موضوعات الفكر الإسلامى . . وتتصل بهذه « اللعبة الشعبية »

ونقصد بها . . الأراجوز التركى . . التى هى لعبة « الظل . . مع الحياة» . . إنها تحطم آمالاً شاعرية كثيرة . . وإن القارىء يحكم فى نهاية المأساة . . بضآلة الفرصة التى بقيت لهؤلاء الفتية . . الذين أغلقوا باب الكهف عليهم . . فماتوا . . وهم يواجهون هذا السؤال القاسى : « هل يتيح لهم القدر . . أن يبعثوا من جديد . . وأن يعيشوا فى ظل «الديمومة الأسطورية » التى خبروها من قبل » ؟ ويأمر الملك . . بعد أن ينتهى كل شىء . . بأن تدفن معهم المعاول التى تتيح لهم - إذا ما بعثوا من جديد- أن يعودوا إلى عالم الأحياء . . ولكن هذا لا يضير شيئاً من الحقيقة . . لقد استسلموا للموت فى هذه المرة بمشيئتهم . . وطرحوا عنهم الخلود . . وإذا كانت « بريسكا » الثانية . . قد أخذت بسحر عالمهم المجهول . . فآثرت أن تقبر حية معهم . . فإنها قد فعلت ذلك . . مجردة من كل أمل . . فى عودة . . أو رجاء . . وفى نفس الوقت . . يسدل الستار . . على عهد القداسة . . ولا تبقى بقية الشك فى زواله . .

بريسكا : مهمة أخرى يا « غلياس » إذا علمت الناس قصتى وتاريخى فاذكر لهم كما أوصيتك . .

ـ غالياس ـ وهو يهم بالخروج : إنك قديسة . . !!

ـ بريسكا : كلا . . كلا . . أيها الأحمق الطيب . . ليس هذا ما أوصيتك . .

- غالياس : إنك أمرأة أحبت .

بريسكا : نعم . . وكفى . . ! « ويخرج غالياس وتبقى وحدها . . ويغلق الكهف عليها . . وعلى الموتى » . . !

■ ■ ■

نفس هذه الموضوعات . . تجدها مبثوثة . . فى . . « شهر زاد » ترجمت هذه المسرحية إلى الفرنسية فى عام / ١٩٢٦ . فسحرت بشاعريتها . . وأسلوبها . . الغنائى - « جورج كيونت [1] » و « لونى بو» [2] وربما أخذا بهذا الجمال الشاعرى . . عن البحث فى دلالتها الحقيقية . . وإدراك قيمتها العالية . . ذلك . . أن ما يبقى فى القصة القديمة . . مظهراً عرضيا . . أو إطاراً خارجياً . . يصبح عند « توفيق الحكيم » مادة العمل الفنى . . وجوهر الحقيقة نفسها . . فهنا نجد التعارض الحاد . . بين « شهريار » و « شهرزاد » والصراع الدائر . . بين « الوجود اللامتناهى » الذى يشيع فى جو الأسطورة . . وبين مطالب الحياة المحدودة . . وضرورات الواقع القاسية . .

إن « شهريار » الأمير الذى لا يرتوى ظمؤه . . ولا ينتهى طموحه . . يلوح لأعيننا . كأنه « فاوست » وقد تلفح فى مسوح شرقية . . و «شهرزاد » الراوية تخطر أمامنا . . كأنها سر الأزل . . إنها هى الأسطورة . . هى الانطلاق من أسر الزمان . . وصورتها تقترب فى أذهاننا . . من رمز القداسة الخالدة . . « إزيس » إلهة مصر القديمة . . التى ترفرف

---

(١) عضو الأكاديمية الفرنسية . .

(٢) مؤسس مسرح (الأوفر) بباريس « المترجم عبد الغفار مكاوى » .

روحها القلقة على الدوام . . « أنا كل ما كان . . كل ما يكون . . كل ما سيكون . . قناعى لم يكشفه بعد . . إنسان . . »

ويبدو لنا أننا لا نخرج عن مفهوم هذه القصة العجيبة . . حين نجد فيها . . تعرضاً أساسياً بين « الوجود الميتافيزيقى » وبين « الوجود الواقعى » يكاد يستعصى على الحل . . الحق - أن « شهريار » يحيا حياة . . « ميتافيزيقية » بحتة . . لكن . . لأية غاية . . إن لم يعد يستطيع أن يعاود حياته البشرية . . « إزيس » - و « شهر زاد » يحتفظان بسر أبى الهول الخالد . . الخلاف الغامض . . بين الأسطورة والحياة . . والإنسان بدوره . . لا يستطيع أن يهزم الزمن . . إلا على حساب حياته نفسها . .

لا فائدة من نزال الزمن . . وحين يهتف « مارنوش » قائلاً : لأننا أحلام . . نحن أحلام الزمن !! » يكاد « شهريار » يردده صداه : « إن الزمن يجثم على صدرى » ! ويهيم الملك من بلد إلى بلد . . مأخوذاً بسحر اللانهاية التى تنعكس فى عينى « شهر زاد » . . إنه لا يجنى من بحثه . . وتطوافه فى الآفاق . . إلا فقدان ذاته . . وضياع الوجود الحق . . الذى جاب الأفق . . بحثاً عنه . .

- « أولست كالماء . . يا شهر زاد . . ؟ سجيناً دائماً كالماء . . نعم . . ما أنا إلا ماء . . هل لى وجود حقيقى خارج ما يحتوى جسدى من زمان . . ومكان . . ؟ »

ومع ذلك . . « فسرعان ما اتخذت حياتى شكل ما احتوى جسدى من زمان . . ومكان » . .

ونعود فنقول : إن من الخطأ أن ينظر النقاد هاهنا . . فلا يجدون إلا التعبير عن حنين غامض « رومانتيكى » . إلى الأوطان . . إن مقوماتنا الذهنية تقف عاجزة . . (أو هى كذلك . . حتى الآن) فى كل ما يتصل بكتاب الشرق النابضين . . (وأشد ما نخافه . . أن يحاول امرؤ . . التقريب بين أعمالهم . . وبين فلسفتنا الوجودية الحديثة . . تقريباً من شأنه أن يغفل التاريخ من حسابه) ، فهنا تصبح المشكلة التى تقابلنا هى قيمة « الواقع » نفسه - كما يحلو للكتاب السرياليين فى الغرب أن يقولوا - كما واجهته أنفس . . حاولت أن تتسامى على الواقع . . منذ آلاف السنين . .

ومن أبلغ الأمور دلالة على صدق ما نقوله أن هذه المشكلة منبثقة فى جميع الأعمال الدرامية . . التى دبجتها يراع كاتبنا . . (وشخصياته تطوف حولها . . على الدوام . .)

وأهم ما هنالك . . هو إبراز هذا الشعور بالفقدان الذى يعانيه أبطال توفيق الحكيم . . إذ يستولى عليهم القلق الجارف نحو . . المطلق . . واللامحدود - (فإلى جانب شهريار) وهو شهيد حلم . . لا عمر له . . بعثه الشرق فى خياله . . نرى « قمر » الذى يظل أبداً . . المخلوق البسيط . . ويتصرف فى نطاق الشهوات الجزئية . . ويحب شهرزاد . . كما يحبها سائر الناس . . وعلى مقتضى القانون البشرى العام . . فى حين أن العبد الأسود . . تتجسد فيه الصور اللامعقولة فى الحياة . . !

ليس إذن . . من قبيل الصدق أن نجد الصراع ينتهى إلى التجربة المحتومة : تجربة شهريار . . لا يحرك ساكناً حين يرى الملكة تخونه -

خيانة مفضوحة . . مع العبد الأسود . . - شهريار - الذى ارتفع عن كل شهوة أرضية . . وتجاوز حدود الغيرة . . التى جعلته يوماً ما . . رجلاً . . كسائر الرجال . . « شهريار » الذى حكم عليه أن ينتهى إلى حيث قاده السراب الخادع . . إلى القرار السحيق . . الذى لا نجاة منه . . ولِمَ لا . . ؟ وهذه « شهر زاد » التى ألحت عليه بالبرهان . . قد أصبحت عاجزة عن أن تعيده إلى الأرض :

« شهريار . . أنت رجل هالك » !

■ ■ ■

جملة الرأى - أن « توفيق الحكيم » يقدم لنا مصر الجديدة . . التى تختلف عن التى تمثلها أسطورة « إيزيس » والتى كانت تسير معصوبة العينين . . يقدّم لنا « مصر » . . التى تطرق باب الواقع والتاريخ . . وتقف فى موقف الاختيار الحاسم لمصيرها . . ويبدو أنها منذ ذلك الحين . . قد عرفت دورها التاريخى فى موكب الحضارة . .

وعلى الرغم مما يشوب الترجمة من جمود فى بعض أجزائها . . فإن مسرحيات مثل « بيجماليون » . . و « سليمان الحكيم » . . و « الملك أوديب » تقدم لنا نفس المشكلات التى رأيناها فى زميلاتها . . كما تتمثل فيها ألوان الصراع والتناقضات بعينها . . وهذا المسرح كله . . يعرض لنا نماذج من الوجود . . تتحدد . . لا بالنسبة إلى « الخير » و « الشر » بل بالقياس إلى « الواقع » و « الحلم » . . وهل تهم الصورة التى يتخذها الحلم فى هذا المجال . . !!

وفى ظلال الوعى . . الذى يغمر بلاد الشرق الإسلامى . . فى هذه الأيام . . نجدها تطرح عنها أسباب الطموح التقليدى التى جعلت الروح الشرقى يسعى نحو المطلق . . يتمثل فى الحكمة الكاملة عند «الملك سليمان» . . وفى الفن المطلق عند «بيجماليون» . . وفى الحقيقة الرهيبة لدى «أوديب الملك» . . ويمكن القول بأن كل شىء يجرى فى عالم لا تزال مشكلة التعارض بين المقدسات . . والمحرمات قائمة فيه . .

وفى مفترق الطرق . . نرى «توفيق الحكيم» . . الكاتب المسرحى المعاصر . . شاهد صدق على هذا الشعور الذى يجيش بالأزمات والمتناقضات . . فى ضمير الشرق الإسلامى . . لدى هذا الكاتب . . تتم معجزة التحول العظيم فى ثوب مسرحى . . إنه التحول المحتوم من مجال المقدسات إلى جمال إنسانى محض . . ومن عالم يسرى فيه الروح الغيبى . . وتسوده أحلام ما وراء الطبيعة . . إلى آخر يساير موكب التاريخ . . إنه تحول تجاه الواقع . . والواقع الحيّ . .

« توفيق الحكيم »

بقلم : « كلاديفيا أود . فاسيليفيا »

عن مجلة « الأدب السوفييتى - موسكو / عدد فبراير ۰۰/ ۱۹٥۷ .

بدأ « توفيق الحيكم » يظهر كأحد كتاب مصر الكبار . . منذ العقد الثالث لهذا القرن . . وهو ينتمى إلى تلك الفئة من الكتاب العرب التى أنتجت أدبها بلغتين . . فهو قد تلقى تعليمه العالى فى فرنسا . . وقضى فيها سنوات عديدة . . وبدأ يكتب بالعربية . . والفرنسية معاً . . وبعض إنتاجه العربى . . مترجم عن الأصل الفرنسى [1] . .

وقد وصف بعض النقاد « توفيق الحكيم » بأنه كاتب متأرجح . . إشارة إلى تردده . . وتدقيقه فى البحث عن الحلول للمشكلات ذات الأهمية الاجتماعية . . وقد ذهب فى بحثه هذا إلى آفاق بعيدة . . محاولاً أن يصل إلى . . مهمة الكاتب . . وأن يؤكد وظيفة الفن . . فى الحياة العصرية . . ومعالجاً قضية تشكيل نظرة معاصريه فى اتجاه تقدمى . . ومؤكداً فكرة الاستقلال الوطنى . . وأن بعض مؤلفاته - « كعودة الروح» ويوميات نائب فى الأرياف - لتستحق مكاناً عالياً . . فى الأدب العالمى الحديث .

---

(۱) - مسرحية « أمام الشباك » .

و« عودة الروح تعتبر إلى حد ما – سيرة ذاتية . . فنحن نجد البطل فيها قد وُلد فى مدينة « دمنهور » أبوه فلاح ميسور الحال . . يشغل منصباً بارزاً فى المدينة . . وأمه منحدرة من أصل تركى . . تكره الفلاحين . . وتحاول دائماً أن تثبت تفوقاً عليهم . . على حين كان والد توفيق يبدى إزاءهم نوعاً من العطف . . وكان ذلك سبباً للنزاع العائلى . . أما الفتى فقد أحب الفلاحين . . وقد شهد عملهم الشاق . . وعرف حرمانهم . . وأدرك ما فى موقف أمه . . منهم – من عدم إنصاف – فأخذ ينسلخ عنها رويداً . . رويداً . . وكانت طفولته شقية . . وذكرياته السعيدة . . عن تلك الفترة من حياته . . مرتبطة بفرقة من الممثلين المتجولين . . الذين كانوا يزورون داره بين الحين . . والحين . . لقد كانت طلاقة الممثلين . . وأغانيهم . . حبيبة إلى الفتى . . وربما كان ذلك . . أصل اهتمامه بالفن . .

وفيما أقبل من الأيام . . أرسل أهل الفتى ابنهم إلى القاهرة . . ليتلقى العلم . . فأقام مع أقارب له فى أسرة محدودة الموارد . . ومع ذلك فإن تلك الحياة . . التى كانت مزيجاً من العمل . . والعوز فى بيتهم . . كانت أحب إليه من الحياة فى بيت أبيه . .

وقد بدأ الفتى محاولاته فى الأدب . . وهو لا يزال بعد فى المدرسة . . وقد وصف تلك الأيام فى كتابه « زهرة العمر . . » وهى قصة أخرى . . يغلب عليها طابع السيرة الذاتية . . وقد كتبها بشكل رسائل . . وضمنها آراءه فى الفن والأدب . . وكشف فيها على الأخص . . الطريق الذى سلكه نحو التأليف . . لقد كانت محاولاته الأولى تمثيليات

وضعت لأولئك الممثلين المتجولين . . فهو يكتب عن تلك الفترة من حياته :

« كانت بدايتى الفنية . . بين الممثلين . . أولئك الذين يسمونهم عندنا « المشخصاتية » والحق أنهم فى مصر . . ليسوا بعدمن الطوائف المحترمة . . لقد كان ملحن روايتى « كامل الخلعى » يجلس معى على قارعة الطريقة . . يدندن . . وهو عارى القدمين . . إلا من قبقاب خشبى . . تلك كانت بدايتى الفنية . . والأدبية » [1] .

ولم يُرْض ذلك الاهتمام بالأدب والفن . . والدى الفتى . . اللذين آرادا له أن يدرس الحقوق . . وقد أشار عليهما بعض الأصدقاء فأرسلوه ليتلقى علومه فى فرنسا . . مؤملين أنه عندما يُحاط بجو جديد . . ويهتم بمسائل جديدة . . قد يسلو بها عن الفن . . وينصرف إلى ما تمناه له والده من حياة قانونية قضائية محترمة . . ولكن خاب ظنهم - فتوفيق - لم يهتم بالقانون . . وقد كتب لأحد أصدقائه يقول : « إنى فى عرف القانون . . « محام » ولكن . . أى محام . .؟ لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أيام أن كان يسمع ويرى . . أنى أنسى صفتى كمحام . . وأنحشر فى زمرة الممثلين . . »

وكان « توفيق الحكيم » فى الواقع قد بدأ يكتب مسرحيات بالفرنسية . . وكان بعضها قد بدأ يخرج على المسارح الفرنسية . . ؟

(١) لقد عدنا إلى الاستشهادات المأخوذة عن . . « توفيق الحكيم » كما وردت فى مؤلفاته . . وقد تختلف بعض الشيء . . عن النص الإنجليزى . . الذى ترجمنا منه هذا المقال . . « مجلة الشرق».

وعندما عاد « الحكيم » إلى مصر . . عُين نائباً فى الأرياف . . وفى منصبه هذا – وهو ذو الملاحظة الدقيقة لتفاصيل حياة شعبه – أتيح له أن يجمع ثروة من المواد لكتابته المقبلة . . وقد نقل بعد ذلك إلى القاهرة . . حيث اشتغل فى وزارة المعارف . . وتفرغ فى السنوات الأخيرة . . للإنتاج الأدبى . .

ولم يكن التطور الأدبى لكاتبنا تطوراً بسيطاً . . فهو قد وصل إلى أوروبا فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى . . فى الفترة التى احتدم فيها الصراع فى مجال الأدب والفن . . بين اتجاهات الواقعية . . والاتجاهات الشكلية المتعددة . . وكانت تلك السنوات تعتبر سنوات التكوين بالنسبة لكاتبنا . . ولم يكن موقعه فى البداية واضحاً تماماً . . فقد شعر بنفسه منجذباً نحو التيارات الحديثة للواقعيين الفرنسيين . . لكن فى الوقت ذاته . . كان يرى فى اتجاهات « المودرنزم » منبعاً للخلق الجديد فى الفن . . وقد كتب فى « زهرة العمر » عن تفتيشه . . وبحثه أثناء إقامته فى باريس : « أنا لا أستطيع أن أقول مع الثائرين . . فليسقط « القديم » لأن هذا القديم أيضاً جديد على . . فأنا مع أولئك . . مع هؤلاء » . . !

وتابع « توفيق الحكيم » تفتيشه . . فدرس الرسم والموسيقى . . محاولاً أن يعثر على ارتباطاتها الداخلية بالأدب . . وقد كتب عن زياراته لمتحف اللوفر يقول : « كل لوحة . . فى الحقيقة . . ليست إلا قصة تمثيلية . . داخل إطار . . لا داخل مسرح . . تقوم فيها الألوان . . مقام الحوار . . إنى لا أكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال . . وهم على

الموائد . . فى أفراح (قانا) لوحة « فيرونيز » أكاد أسمع ضجيج الحاضرين . . وصياح الشاربين . . ورنين الكؤوس . . وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن . . إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة تقرب من طريقة إبرازها بالقلم . . إن أساس العمل واحد فيهما : الملاحظة والإحساس ، ثم التعبير بالرسم والتكوين . . بل إن الروح . . أحياناً ليتشابه »

وإننا لنشعر فى مؤلفات الكاتب - فى تلك الفترة - بميل نحو الواقعية . . ونجد صورة متعددة الألوان - الحياة نابضة . . ولكن ملاحظته للحياة كانت لا تزال تصدر لا عن العقل . . بل عن المشاعر كما هو الحال عند الثائرين . .

وفى سنة ١٩٣٣ / أصدر رواية « عودة الروح » التى كان قد ألفها فى أواخر العقد الثالث من هذا القرن . . عندما بدأ يتجلى فى الأدب المصرى تيار جديد . . وكانت جدة هذا التيار . . هى المصدر الذى استمد منه هذا التيار اسمه - التجديد - وكان فى واقع الأمر . . فى تلك السنوات . . تياراً واقعياً . . يعكس تطور الوعى الوطنى فى البلاد . .

إن الرواية . . تصف الانبعاثة الأولى لحركة التحرر الوطنى فى مصر فى عام / ١٩١٩ - وهو لم يَرَ فى تلك الحركة فى عام / ١٩١٩ م - أن المصالح الطبقية للشعب . . وللبرجوازية . . لم تكن متطابقة . . وكان القبض فى ٨ مارس / ١٩١٩ م على عدد من أعضاء الوفد الذين أرسلوا لحضور مؤتمر « فرساى » السبب المباشر فى قيام المظاهرات التى شملت مصر بأسرها فى وقت واحد . . وكانت المطالب الرئيسية للوفد المصرى -

وهو اللجنة التى قادت حركة / ١٩١٩ - هى الاستقلال التام لمصر . . وسحب القوات البريطانية . . وجلاء الإنجليز عن السودان . . وكان تحقيق هذا البرنامج . . يتيح للبرجوازية . . فرصة واسعة لاستغلال ثروة البلاد . . وشعبها . . وكانت البرجوازية بحاجة إلى قائد . . قادر على توحيد البلاد . .

والمؤلف يعتبر هبَّة / ١٩١٩ - بمثابة « عودة روح مصر القديمة » فهو يكتب :

« لا تعجب لهذا الشعب المتماسك . . المتجانب . . المستعذب . . والمستعد للتضحية . . إذا أتى بمعجزة أخرى . . غير الأهرام » . . !

وربما كانت « عودة الروح » أكثر المؤلفات العربية غنى بالألوان فى العقد الثالث من هذا القرن . . فالمؤلف يصف فيها حياة الفلاحين . . ويهاجم الظلم الاجتماعى الذى كان سائداً فى مصر فى تلك الأيام . . غير أنه يبالغ كثيراً فى دور « سعد زغلول » فيكتب :

« وها هى ذى مصر . . التى نامت قروناً على أقدامها فى يوم واحد . . إنها كانت تنتظر ابنها المعبود . . رمز آلامها . . وآمالها المدفونة . . ينبعث من جديد . . وبعث هذا المعبود من صُلب . . فلاح . . !

فالواقع أن المبادأة فى الكفاح ضد السلطة المحتلة كانت للشعب لا لسعد زغلول . . إنه الشعب الذى عبر عن إرادته . . التى لا تتزعزع . . والذى تحمل التضحيات التى لا آخر لها . . فى هبة / ١٩١٩ .

وقد نشر « توفيق الحكيم » فى الفترة ذاتها . . مجموعة من المسرحيات . . يلجأ أبطالها جميعاً إلى الهرب من صعوبة الحياة . .

ففى رواية « أهل الكهف » استخدم أسطورة « الشبان السبعة . . الذين رقدوا فى الكهف ٣٠٠ سنة . . وعندما استيقظوا – لم يجدوا للحياة معنى . . لأن كل ما كان يربطهم بها من أحياء وأصدقاء كانوا قد ماتوا منذ زمن طويل . . فما كان منهم إلا أن عادوا إلى الكهف . . وإلى النوم . . لم يغفر النقاد التقدميون للمؤلف أنه أنهى روايته على هذا النحو . لأن العام الذى كتبت فيه هو عام / ١٩٣٣ . . حينما كان على رأس الحكومة المصرية الحاكم الرجعى البغيض صدقى باشا . . لقد رأى أبطال « أهل الكهف » دستوراً ينتهك . . وسجوناً تزدحم بنازليها . . واقتصاد البلاد يدمر . . والفقر ينتشر . . ومع ذلك . . فقد عادوا إلى كهفهم . . مقدرين أن لا جدوى من محاولة تغيير الوضع القائم . .

وشهد عام / ١٩٣٧ – « يوميات نائب فى الأرياف » بما فيها من وصف صادق دقيق للحياة فى قرية نائية . . إنها تصور الموظفين الصغار فى الأرياف بكل جهلهم . . وبكل آرائهم المحافظة . . الجامدة . . وتبين عجزهم . . ورفضهم حياة الفلاحين . . الذين يساقون أمامهم إلى المحاكم . . !

والحالات التى يعرضها علينا فى المحكمة . . حالات نموذجية . . وأكثرها يتضمن لمسات كوميدية . . ولكنها فى الوقت ذاته درامية . . كحالة شخص . . جريمته أنه يملك كلباً بلا رخصة . . والأشخاص الذين يغسلون ملابسهم فى مياه الترعة . . وما شابهها . . والمتهمون . . لا يعترفون بخطئهم . . بل هم يعتبرون الغرامات التى تفرض عليهم عقوبة من السماء . . والمؤلف يعترض على القوانين المستوردة من الخارج . . والتى تفرض على الشعب فرضاً . .

وفى السنوات التالية . . تناولت كتابات . . « توفيق الحكيم » عدداً من القضايا الاجتماعية . . الحيوية . . كالكفاح من أجل الاستقلال . . الوطنى . . ومساوىء الظلم الاجتماعى . . وتحرير المرأة . . « الرباط المقدس » و « عصا الحكيم » و « تأملات فى السياسة » ومع ذلك . . فالكاتب لا يكشف السبب الأساسى للمتناقضات الاجتماعية . . وكثيراً ما ينتهى إلى نتائج خاطئة . . وكما قال أحد النقاد العرب : « إنه يضع نفسه . . داخل سور يحجبه عن العالم الخارجى . . عالم الشعب . . ويظل يحوم بين خيالات غامضة . . وأفكار عارية . . »

إن نظرة « توفيق الحكيم » ليست دائماً نظرة واقعية . . فهو أحياناً يدافع عن . . « الفن للفن » ويؤكد فى أحيان أخرى . . أن « الفن هو الحياة . . نفسها » . .

بيد أن خدماته – مع هذه التحفظات للأدب الواقعى المصرى الحديث – معترف بها من الجميع . .

وهو أول من عالج فكرة الكفاح من أجل الاستقلال . . وأول من ساعد على خلق الطراز الجديد فى القصة الاجتماعية . . وأول من أدخل «اللغة العامية فى الأدب » . .

وقد كتب الكاتب التقدمى . . « أحمد بهاء الدين . . » فى مقدمته لكتاب « تأملات فى السياسة » :

« إننا نحن الكتاب الشباب . . نستطيع أن نتعلم منه الشىء الكثير. . فقد كان . . « توفيق الحكيم » يكتب غير متسرع . . ولا

متعجل . . وينفق فى كتبه . . سنوات قليلة قبل أن ينشرها . . ونحن إذا كنا نختلف معه فى كثير من الآراء . . فكلنا نعترف بخدماته للأدب العربى . . وخاصة فى مجال . . . « الدراما المصرية » . . والرواية الواقعية . . »

« توفيق الحكيم »
« وعمله .. الأدبى »

بقلم : « أ. بابا دَو بولو »

يحتل « توفيق الحكيم » مركزاً رئيسياً فى النهضة الأدبية التى أكدت حركة الإنشاء والإبداع فى مصر . . منذ بداية القرن الحالى . . بالرغم من أنه لم يبدأ التأليف الجدى . . قبل سنة ١٩٢٠ م .

و « توفيق الحكيم » اليوم . . أكثر الكتاب نصيباً من الأحاديث . . ومن الإقبال على ترجمة مؤلفاته . . فقد نشرت كتبه باللغة الفرنسية . . والإنجليزية . . والروسية . . والألمانية . . والأسبانية . . والإيطالية . . والسويدية . . كما مثلت مسرحياته فى « لندن . . وباريس . . وباليرمو . . واستكهولم . . وسالزبورج » . . وأدرجت إحدى الجامعات الشهيرة فى « الولايات المتحدة كتابه «يوميات نائب فى الأرياف» بين ستين كتاباً . . اختيرت لتمثل أهم المؤلفات العالمية التى ظهرت بين سنتى ١٩٠٠ و/ ١٩٥٠م . . ولكى نستعرض إنتاجه بإيجاز . فى الإطار التاريخى الذى بينه على حقيقته . . نذكر أن الشعراء الثلاثة الكبار «شوقى» و « حافظ » و « مطران » خلقوا الشعر العربى الحديث فى مصر . . فى مطلع القرن الحالى . . بإنتاجهم الرائع . . المتباين الألوان . . وقد لحق بهم رعيل من الشعراء المجددين . . منهم

« العقاد » و « المازنى » و « شكرى » . . ومن ثم . . فقد أخذت النهضة الشعرية تتقدم بخُطى سريعة قوية . .

على أن النثر . . لم يحظ فى البداية . . بالتقاء عبقريات ومواهب . . كهذه التى حظى بها الشعر . . فاقتصر على المقالات الدينية . . والفلسفية . . والتاريخية . . كتلك التى كتبها الأفغانى . . ومحمد عبده . . ولطفى السيد . . بعد أن كان محصوراً فى نطاق ما ترجم عن . . « الأدب القصصى والمسرحى . . الأجنبى – والفرنسى بوجه خاص – وعن الأدب اليونانى القديم . . ثم ظهرت فى الأدب العربى المعاصر بعد ذلك محاولات فى المجال التاريخى ، والمجال الشعبى . . عالجها المنفلوطى و « زيدان » و « رمزى » و « محمود تيمور » و « محمد حسين هيكل » . . و« العقاد » و « المازنى » . . وقدر « لطه حسين » – فى تلك الأثناء – أن يبرز بأسلوب ممتاز تحالفا مع تفكير حديث فى سلسلة من الكتابات فى النقد . . والتاريخ . . والفلسفة . . وبعد ذلك فى قصص مثل « الأيام » الذى كان من أبرز معالم جيله كله . . !

وفى هذه الحركة . . الواسعة النطاق . . ظهر إنتاج « توفيق الحكيم » فقدر له أن يكون صاحب الشرف . . فى خلق أدب مسرحى نثرى حقيقى مبتدع للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العربى . . وأن يبث فى الأدب القصصى دوافع جديدة . . سواء بجودة بناء القصة والأسلوب . . أو بحسن اختيار الموضوعات المستمدة من واقع الحياة القومية والاجتماعية فى مصر . .

ولد « توفيق الحكيم » فى الإسكندرية فى سنة ١٨٩٨ م . . كما يستدل

من تاريخ حياته . . وفى سنة / ١٩٠٢ - كما تردد فى أقواله - فى أسرة مصرية من الطبقة الوسطى . . وكان أبوه قد انتقل إلى الريف . . إبان الفترة التى ولد فيها - فلم يستطع أن يشهد مولده . . إذ احتجزته أعماله القاسية التى قدر لتوفيق الحكيم أن يصفها فيما بعد . . بأسلوب مفعم بالفكاهة . . ومع ذلك . . فإن والد المؤلف . . لم يفكر قط فى أن يهجر وظيفته . . فما لبث أن أصبح قاضياً . . ثم مستشاراً فى المحاكم . . وليس من شك فى أنه كان يحب عمله . . برغم ما فيه من واجبات مستبدة غاشمة . . حتى إنه حرص أن يحذو ابنه حذوه . . ويترسم خُطاه . . على أن هذا الابن . . أظهر منذ صباه أنه لم يكن أصَم عن سماع نداء آخر . . إذ كان قد تعرض على الأوساط الفنية فى أكثر نواحيها تواضعاً . . ممثلة فى ممثلى الفرق التمثيلية المتنقلة . . والحواة . . والمشعوذين . . الذين كانوا يقيمون حفلات فى المراكز . .

وكان لهذا الوسط البوهيمى . . وللدنيا المصطنعة . . بين جنباته - دنيا الثياب التنكرية ، والمناظر المسرحية « والماكياج » - أثر كبير على خيال الفتى اليافع . . وسحر لا يُقاوم . . حتى إنه كان يهمل دروسه ليجرى فى أعقاب زملائه الجدد . . ولم يرق هذا لوالديه . . اللذين لم يكن ليخطر ببالهما إطلاقاً أن هؤلاء الممثلين البائسين . . بأزيائهم الزرية . . إنما كانوا يفتحون لابنهما نافذة تطل على جنة الفن . . وكانوا يذكون بين جوانحه . . جذوة مهنة أنتج فيها كل هذا الإنتاج الوافر من الأعمال الأدبية . . والواقع أن انغماسه فى ارتياد هذا الوسط . . وفى مخالطة هؤلاء الناس . . كان يبدو من الأمور التى تشين أبناء الأسرات

الطيبة . . فى ذلك الحين . . على أن « توفيق الحكيم » استطاع أخيراً أن يظفر بإجازة «القانون » فى مدرسة الحقوق . . بالقاهرة فى سنة ١٩٢٤م .

على أنه . . فى تلك الأثناء . . قد بدأ يكتب المسرحيات . . فوضع أولى مسرحياته فى سنة ١٩١٨ - ولم تحن سنة ١٩٢٤ - حتى كانت له مسرحيات تمثل فى المسرح . . ويساهم فى إخراجها بنفسه . . ولم يعد أبواه يملكان أن يمنعا هذا الابن - الذى أصبح رجلاً - من غشيان الأوساط المسرحية فى العاصمة . . الأوساط التى كانا يريان - بلاشك - أنها ذات آثار خلقية سيئة . . على أمثاله . . !

وكانت مصر . . قد شرعت تجتاز مرحلة حاسمة دقيقة من تاريخها . . فى السنوات الأخيرة للحرب العالمية الأولى . . مرحلة كان مقدراً لها أن تحدث تحولاً بعيد المدى . . فى نفوس جميع شباب ذلك العهد . . لأن الثورة الوطنية التى امتدت من سنة ١٩١٩ م إلى سنة ١٩٢٢ م - كانت جماع قرن كامل من التقدم والرقى . . امتدت فيه يد التطور الحديث إلى كل ناحية فى البلاد التى تفتحت للأفكار الحديثة . . التى كانت فى تفاعل وتخمر مستمرين فى أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الثورة الروسية . . وكانت الآراء الخاصة بالقومية وبالديمقراطية السياسية والاجتماعية قد تغلغلت فى مصر إلى حد بعيد . . بفضل الصفوة المثقفة من أبناء مصر . . والذين تعلموا فى فرنسا . .

وكان الحلفاء . . الذين قدر لهم أن ينتصروا فى الحرب العالمية الأولى . . قد بذلوا كل لون من الوعود القائمة . . على حرية الشعوب . . فى تقرير مصيرها . . بغية اجتذاب مصر . . إلى الصراع الذى كان

دائراً ضد الأتراك . . وكانت مبادىء الرئيس « ولسن » الأمريكى . . الأربعة عشر . . قد أعلنت . . وكان الشعب المصرى قد فطن فى مرارة إلى نفسه . . وإلى مصالحة التى كانت تتعارض مع مصالح البيت المالك . . والطبقة الأرستقراطية التى كانت مؤلفة من أتراك . . كان قد فطن إلى كل ذلك منذ ثورة عرابى فى سنة ١٨٨١ م - ومن ثم . . فقد ساهمت كل هذه العوالم فى نهضة الأدب والفكر . . فى عهد الأفغانى . . ومحمد عبده . . إلى عهد « مصطفى كامل » « ولطفى السيد » أستاذ الجيل ، الذى كان يدافع باستمرار فى صحيفته « الجريدة » عن مبادىء . . الحرية . . وعن القومية . . وعن ضرورة التفكير على أسس علمية . . ومنطقية . . ساهمت كل هذه العوامل فى التمهيد للثورة القومية . .

ومن ناحية أخرى . . كان سكان المدن . . وكذلك الفلاحون . . فى مصر . . قد أثروا . . بدرجة كبيرة . . خلال الحرب العالمية الأولى من جراء الارتفاع الخيالى . . الذى طرأ على أسعار القطن . . وكانت حركة التصنيع . . قد بدأت . . وظهرت حركة عمالية . . منذ سنة ١٨٨٩م . وقد أدى كل هذا . . إلى أن يشعر سكان المدن . . فى مصر . . بقوتهم . . مما حفز الشعب . . على أن يعرض مطالبه على المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر/ ١٩١٨ . . ثم على مؤتمر السلام بفرساى . . وعلى كل من «كليمنصو » و « ويلسون » و « لويد جورج » . رؤساء حكومات الدول الكبرى الثلاث إذ ذاك . . وقد أجابت انجلترا على ذلك بأعمال استعمارية وحشية . . ثم عمدت فى ٨ مارس / ١٩١٩ - إلى نفى الزعيم

« سعد زغلول » إلى « مالطة » مع ثلاثة من زملائه . . وفى اليوم التالى مباشرة . . قامت الثورة الوطنية ضد الاحتلال . . انتهت بعد نفى «سعد زغلول » وبعض زملائه . . مرة أخرى إلى « سيشل » بالاعتراف بمصر . . مملكة . . وبإعلان - ٢٣ فبراير / ١٩٢٢ م .

فى خلال هذه الفترة الحافلة . . التى تأججت فيها شعلة القومية فى شوارع القاهرة . . وفى مصر كلها - لا سيما فى نفوس الطلبة بالذات - فى هذه الفترة . . بدأ « توفيق الحكيم » ينضج . .

وفى هذه الفترة الزاخرة بالانفعالات . . أقبل المسرح المصرى على عصره الذهبى . . ممثلاً فى فرقة « نجيب الريحانى » . . و « على الكسار» . . و « زكى عكاشة » . . التى كانت تعتمد على مؤلفين من أمثال «أمين صدقى » . . وعلى ملحنين من أمثال « سيد درويش » . . وراج إذا ذاك نوع من المسرحيات الفكاهية - الكوميديات - الشعبية المصحوبة بأغان . . ورقصات . . وموسيقى . . بيد أن الأحداث السياسية التى أدت إلى نفى « سعد زغلول » ورفاقه . . وإلى ثورة / ١٩١٩م - كانت ذات تأثيرات عظيمة على المسرح الشعبى . . إذ أنه انتهز الفرصة . . . ليدخل على مسرحياته إيحاءات وطنية متوارية . . وعلى أغانيه نغمة قومية تناسب الموقف . . وتستمد من وحيه . . وسرعان ما أصبحت هذه الأغانى تردد فى الشوارع - وهكذا - ساهم المسرح الشعبى - فى تلك الفترة - فى القضية السياسية لمصر . .

وفى هذا الجو المشحون بالانفعالات الوطنية . . وبالصراع السياسى . . وبفن المسرح القومى . . كان توفيق الحكيم يجتاز أهم سنى

العمر . . وهى السنون التى تمتد من الثامنة عشرة . . إلى الخامسة والعشرين . . ففيها تجلى حبه العميق للمسرح . . ذلك الحب الذى كان كامناً - بلا شك - فى أعماقه . . والذى كان ينمو . . ويستوى . . كالنبتة القومية . . والذى كان ينمو نمواً قومياً . . واقعياً . . فألهمه أولى رواياته « عودة الروح » التى قدر لها أن تنشر فى سنة ١٩٢٣ . . على أنه - فوق هذا - راح يغذى الفرق التمثيلية التى قامت فى تلك الفترة بمسرحيات كان يبتكر أفكارها . . ويكتب حوارها . . دون أن يضع اسمه ولقبه عليها . . ومن ثم اكتسب تجربة - ككاتب مسرحى على اتصال دائم بالممثلين الذين كانوا أكثر منه خبرة - بضرورات الإخراج . . وتكوين المناظر . . بحكم ما كانوا يلمسونه من نجاح أو فشل . . فى اتصالاتهم اليومية بالجمهور . . فاكتسب « الحكيم » من خبرتهم ما أفاده فى استكمال استعداده للتأليف المسرحى . .

وكانت أولى مسرحياته تسمى « الضيف الثقيل » فى سنة ١٩١٨ -

وكان من الواضح أن انجلترا هى « الضيف الثقيل » الذى لم يدعه أحد . . ولكنه أقبل بدون استئذان . . ثم أبى أن يبرح الدار . . وقد منع الرقيب المسرحية . . فلم يقدر لها أن تمثل . . على أن ثلاث مسرحيات أخرى كتبها لفرقة « زكى عكاشة » لقيت قبولاً . . ولكنها لم تشتهر . . وهى « الخطيب » . . التى مثلت فى سنة ١٩٢٤ - و« المرأة الحديثة » وقد مثلت فى سنة ١٩٢٦ - وأوبريت « على بابا » وقد أخرجت فى سنة ١٩٢٦ كذلك . .

ومع ذلك . . فإن أباه . . لم ير فى كل هذا الاتجاه . . سوى مظهر

للفساد . . برغم أنه كان قاضياً منصفاً . . ذلك لأنه لم يدرك مدى عمق هذا الحب وتأصله . . ولا على أى أساس روحى خالد كان يقوم . . فقد غفل - ككل الآباء - عن مواهب ابنه . . !

ولكى ينتزعه من هذه النزوات . . أوفده إلى باريس . . لكى يستكمل دراساته القانونية . . ويحصل على « الدكتوراه » . . ولم يفطن قط إلى أنه إنما أوفده إلى عكس ما كان يبغى تماما . . فما إن استقر الشاب فى باريس . . والتحق بكلية الحقوق . . حتى اتجه . . كما تتجه إبرة البوصلة . . نحو الشمال - إلى الأوساط الفنية والأدبية البوهيمية . . وإلى المقاهى التى كان الممثلون يغشونها . . وكثيراً ما كانت قدماه تقلانه إلى مسارح « البوليفار » و « مونمارتر » و « مونبارناس » بدلاً من قاعات المحاضرات . فى « السوربون » . . ؟

وانقضت ثلاث سنوات . . من ١٩٢٥ - ١٩٢٨ قبل أن يفقد أبوه الأمل فى أن يراه حاملاً للقب « دكتور فى القانون » ثلاث سنوات . . أنفق الشاب وقته خلالها . . فى قراءة الأدبين : المعاصر ، والقديم . . وفى شحذ قريحته ، وفى صقل مواهبه وذوقه . .

ولكن . . لكل شىء نهاية . .

ففى ذات يوم . . عزف الأب المصدوم فى آماله عن أن يبعث إلى ابنه بالمعونة المالية التى كان يسىء استخدمها فيما لا نفع له . . كما كان يرى . . وأرسل إلى ابنه . . يستدعيه للعودة إلى مصر . . على أن الأمل لم يفارقه فى أن يرى ابنه يتخذ المهنة التى ارتقى هو درجاتها . . موفقاً . . ومن ثم . . فقد قضى « توفيق الحكيم » المدة بين سنتى : ١٩٢٨ و

١٨٢٩ - عضواً فى المحكمة المختلطة . . بالإسكندرية . . وكان هذا المنصب . . ملائماً له . . كل الملاءمة . . فهو فى العاصمة الثانية للبلاد . . وهو منصب مرموق لامع . . يكسب صاحبه مكانة اجتماعية . . ومن ثم . . لم يجد « توفيق الحكيم » فيه أية غضاضة . . أو مضيعة لأحلامه . . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ - إذا به . . بعين نائباً لدى المحاكم الوطنية . .

وقُدر للشاب . . فى الأعوام الأربعة التالية أن يرى مصر كما لم يرها من قبل . . لا الواجهة الجميلة لمصر التى تتمثل فى أهل المدن . . وفى مظاهر المدينة الحديثة فى القاهرة والإسكندرية . . وإنما الواجهة التى تتمثل فى المجتمع الأكبر . . مجتمع أبناء المدن الصغيرة . . وأدنى أوساط الطبقة الوسطى . . فى البنادر والمراكز الريفية - التى تنقل بينها بحكم منصبه - وحولها الريف الواسع . . الشاسع بأهله . . الذين لا حصر لهم من الفلاحين الكادحين . . وكان هذا بالنسبة لتوفيق الحكيم بمثابة رفع الحجاب عن عينيه . . ليرى فرط شقاء هؤلاء القوم وعواطفهم العنيفة الكظيمة من ناحية . . ولطفهم ومرحهم . . وروحهم الشاعرية التى كانت بمثابة منحة من السماء . . أو نعمة جعلت عيشهم الزرى . . محتملاً بالنسبة لهم . .

وراح يقيس السياج الخفى . الذى كان يفصل الفلاحين من أهل مصر . . الذين يعيشون فى عهد متأخر من عهد مواطنيهم الموظفين من أهل المدن . . الذين كانوا يطبقون عليهم قوانين مستمدة من قوانين نابليون . . التى لم يكونوا يفقهون منها شيئاً . . ومع أنهم كانوا

مطواعين . . سلسى القياد . . فإن أحداً لم يعن بمساعدتهم فى محنتهم وشقائهم . .

وفى خلال هذه الفترة من حياتهم . . راح توفيق الحكيم . . يجمع مشاهداته عن حياة الفلاحين . . وعن عاداتهم . . وعن كلامهم . . وعن معتقداتهم . . وعن ظلم أو إهمال الموظفين الحكوميين لشئونهم . . وعن طغيان ملاك الأراضى الأغنياء . . وهذه المشاهدات هى التى استخدمها بعد ذلك . . فى « يوميات نائب فى الأرياف » فى سنة ١٩٣٧- وفى كثير من القصص التى تضمنتها المجموعة المسماة . . «ذكريات فى الفن . . والقضاء » . . التى نشرت فى سنة ١٩٥٣ - ثم . . فى مسرحية « الصفقة » التى مثلت فى سنة ١٩٥٧ .

وبعد أربع سنوات من العمل الذى كان يعافه . . لولا أن وجد فيه نواحى فكهة . . وشاعرية كذلك . . كان توفيق الحكيم قد جمع ما ينبغى أن يعرف عن بلاده . . وعن شعبها . . وأثقلت فؤاده صور التعاسة والشقاء التى كانت تحيط به . . وإن لم يكن أثرهما عقيماً فى نفسه . . فما لبث أن تعطش إلى العودة إلى الأوساط المتمدينة . . ليطلعها على هذه الصور . . وشعر بأنه لا سبيل إلى إثارة الرأى العام بالمؤلفات . . والمقالات . . إلا إذا استقر به المقام فى عاصمة البلاد . . ومن ثم طلب تحويله إلى وزارة المعارف العمومية « وزارة التربية والتعليم » وفى تلك السنوات . . كانت جهوده الأدبية فى نضج وتقدم . . برغم الجو الذى كان يعيش فيه . . فما لبث أن نشر فى سنة ١٩٣٣ - أولى

مسرحياته الفلسفية . . التى أثارت ضجة . . ومعارضة كبيرة وهى : «أهل الكهف » . .

وما أن علم « النائب العام » أن أحد معاونيه هو سر الضجة التى ثارت حول أحد أعماله الأدبية . . حتى استدعاه . . ونصحه - فى نهاية المقابلة - بأنه كان من الأفضل لو أنه برز بمؤلف فى « القانون » فانتهز توفيق الحكيم هذه الفرصة . . ليجيب قائلاً . . بأنه من الأنسب لحياته الأبية ، وما قد تثيره من ملابسات لا ينبغى أن تؤثر على منصبه القضائى - أن يحول إلى وزارة المعارف العمومية . . !

وهكذا . . لم يقدر للنزاع الطويل . . بين ميوله المتأصله ككاتب . . وبين دراساته . . وبين منصبه القضائى . . الذى حاول أبوه أن يحمله على المضى فيه . . لم يقدر لهذا النضال أن ينتهى إلا وقد بلغ « توفيق الحكيم » السادسة والثلاثين . . فعين مديراً لإدارة التحقيق بوزارة المعارف العمومية فى سنة ١٩٣٤ - وهو منصب قضائى هو الآخر . . ولكن أكثر تحررا من سابقه . . وأدعَى لاستقرار صاحبه . . فى القاهرة . . وما لبث الكاتب أن نقل فى سنة ١٩٣٩ م. إلى وزارة الشئون الاجتماعية . . التى أنشئت على إثر الضجة التى أثارها كتابه . . «يوميات نائب فى الأرياف » لا سيما التعليقات المهتاجة التى نشرتها الصحف عن هذا الكتاب الذى عرض بصراحة صادقة . . لأول مرة - الأحوال الجتماعية للفلاحين . .

وفى وزارة الشئون الاجتماعية - عين « توفيق الحكيم » مديراً لمصلحة الإرشاد الاجتماعى - التى تسمى فى بداية عهد الوزارة - بمصلحة

الإرشاد القومى – وكثيراً ما تعرض توفيق الحكيم . . خلال عمله . . لغضب رؤسائه من جراء مؤلفاته . . ومقالاته . . التى كانت تهاجم جميع الجهات ذات السلطان على السواء . . وكم من مرة . . أنذر بالإيقاف والتحويل إلى مجلس تأديب . . ولكن خوف المسئولين من ثورة الرأى العام . . ولما كان للكاتب من أنصار كثيرين فى الصحافة . . انتهى الأمر إلى خصم مرتب نصف شهر . . وهو أقصى ما كان الوزير . . يملك أن يقضى به . . وفقاً للوائح . . !

على أن « توفيق الحكيم » لم يعد فى سنة ١٩٤٣ – يطيق القيود التى كانت الوظيفة تفرضها على حريته . . ولا المضايقات التى كان معرضاً لها كموظف . . فقدم استقالته من العمل الحكومى . . ليصبح حُراً . . يستطيع أن يعبر عما يجيش بنفسه . . ومع ذلك فإنه قبل فى سنة ١٩٥١ – منصب المدير العام لدار الكتب . . وهو منصب كان يبيح له كل الحرية فى أن يكتب ما يشاء فى جو ملائم . . حتى إذا أنشىء المجلس الأعلى للفنون والآداب . . فى سنة ١٩٥٦ عين توفيق الحكيم . . عضواً دائماً . . للجمهورية العربية المتحدة . . فى « اليونسكو » بباريس . . بعد أن حظى بأرفع وسام فى الدولة . .

ولا يبدو . . أن للمسائل الشخصية من غراميات أو رياضة – أو أية هواية – مكاناً كبيراً فى حياة « توفيق الحكيم » فقد انصرف بكل ذاته إلى الأدب والمسرح – والصحافة – فى أوقات الفراغ . . التى كانت أعماله الحكومية تتركها له . . ولعل رياضته الوحيدة . . تمثلت فى حبه للجلوس فى المقاهى فى فترة العصر من كل يوم . . بصحبة الأصدقاء . .

الذين يلتفون حوله . . ولعل هوايته . . هى « العصا » . . و «البيريه » اللذان لا يفارقانه . . والبخل الذى يشاع عنه . .

ولم يقبل توفيق الحكيم . . أن يشتغل بالسياسة الحزبية . . ولا بكتابة المقالات السياسية . . بالمعنى الحزبى المعروف - بل إنه جعل يسجل استهجانه للأحزاب السياسية جميعاً . . والنظام الديمقراطى الزائف الذى ساد مصر منذ انتهاء الثورة فى سنة ١٩٣٢ - وذلك بمقالات أدبية . . فى أسلوب مفعم بالسخرية . . فقد كان النظام الديمقراطى - كما صوره فى « شجرة الحكم » يتيح لمحترفى السياسة أن يجنوا كثيراً من الثمار الشهية . . وقد أصدر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٥ - وضمنه مقالات حمل فيها على هذه المساوىء . . كما أنه عالج مشكلة الحكم والسلطان . . فى مصر . . فى سنة ١٩٣٩ - فى مسرحية من وحى الشاعر الإغريقى الفكه . . « أريستوفان » سماها « براكسا » أو « مشكلة الحكم » . . وفى بعض مؤلفاته الأخرى . . التى تعالج نفس الاتجاهات . . مثل . . « يوميات نائب فى الأرياف » وعدد من قصصه القصيرة . . و «مسرح المجتمع » . . الذى أصدره فى سنة ١٩٥٠ - والذى ضم ٢١ تمثيلية - و « ذكريات الفن والقضاء » بل ومسرحيته - « الصفقة » . . فإن هذه كلها - تسعى إلى كشف أسباب الصلة فى الظروف الاجتماعية الاقتصادية التى صورها « الحكيم » بأسلوب واقعى . . تخالطه حرارة العاطفة . . ولطف الفكاهة والشعر . . فقد رأى أن الفكاهة والشعر . . كانا دائماً صنوين لا يفترقان عن الشقاء والبؤس فى الريف المصرى . . !

ولقد ظل « توفيق الحكيم » معروفاً لأمد طويل . . بأنه « عدو المرأة»

لما نشره من مقالات حافلة بالسخرية والفكاهة . . عن الحركة النسوية المصرية . . وعن اشتغال المرأة . . بالأعمال . .

وكانت « براكسا » بالذات مثالاً واضحاً لذلك . . على أنه لم يلبث فى سنة ١٩٤٦ م - أن تزوج . . وكان زواجه موفقاً سعيداً . . وأتاح لعدو المرأة أن يصبح أباً . . لولد . . وبنت . . !

وتزخر مؤلفات « توفيق الحكيم » بالتناقض الأسلوبى . . تلفت النظر لأول وهلة . . بما فيها من واقعية التفصيلات . . وعمق الرمزية الفلسفية . . بروحها الفكهة . . وبرقة شاعريتها . . بنزعة حديثة مقترنة - فى كثير من الأحيان - بنزعة « كلاسيكية » . .

ذلك . . لأن « الحكيم » فنان فى أعماقه . . ولعله من أكثر الكتاب الكبار فناً . . لا فى مصر وحدها . . ولا فى الأدب العربى فحسب . . بل فى الأدب العالمى بأسره . . فقد أخذ عن الإغريق القدامى . . تقدير العمل المتقن الأداء . . وحب المسرح الذى يصور مصير الإنسان . . خلال قصة رمزية تعالج غالباً بدقة تتسم بكثير من الواقعية . . والتحليلات النفسية والتاريخية . . والسياسية والاجتماعية فى آن واحد . . وقد عرف كيف يكتسب لنفسه شيئاً من فكاهة « أريستوفان » وذكائه اللاذع . . ومن الشاعرية الدرامية التى امتاز بها « يوريبيدس » و« سوفوكل » وكثيراً ما وفق بالحياة . . أو بالخيال . . وبعضها بالحس . . أو بالعاطفة . . ولكنها تتسق جميعاً حول الشخصيات الرمزية . . وتدع للفكر الغلبة فى النهاية . . بعد موت الأبطال . . أو فشلهم . . وبعد غياب الممثلين عن المنصة . .

ولا يبدى « توفيق الحكيم » هذه البراعة فى المسرحيات التى تدور حول موضوعات أسطورية قديمة . . مثل « بيجماليون » و « براكسا » و«الملك أوديب » فحسب . . بل إنه لم يكد يصل إلى سر صنعة الإغريق . . حتى عكف على محاولة تطبيقه على موضوعات جديدة – ليخلق شخصيات جديدة . . كذلك انصهرت فى أعماقه آداب أخرى . . بنفس الدرجة . . آداب الشرق فى عهد ازدهارها . . أيام . . « ألف ليلة وليلة » وأشعار « ابن الرومى » و « أبى نواس » و « المتنبى » وآداب الغرب . . ممثلة فى إنتاج « شكسبير » و « راسين » . . و « ميترلنك » و « إبسن» و « جيرودو » . . و « بيراندلو » و « كوكتو » . . وقد تعاونت هذه العناصر متكافئة مع شخصيته الفنية لإنتاج مسرحيات رصينة متزنة . .

وإلى جانب ذلك . . أوتى « الحكيم » روحاً حديثة . . وموهبة مجددة . . بالرغم من إغراءات الفن . . وفتنة الموضوعات الكلاسيكية . . والشخصيات الرمزية الخالدة . . وقد تجلى هذا إلى درجة كبيرة . . بما أضافه – إلى كل ما سبق – من الواقعية المستمدة من الدراسات النفسية . . بما يوحى بإلمام واسع . . بالثقافة المعاصرة . . وبالتحليل المنطقى بوجه خاص . . فبهذا توصل إلى تفادى المغالاة فى الحركة المادية . . التى كانت كفيلة بأن تكسب مسرحياته . . شيئاً من المبالغة . .

على أن الفن . . لا يتعارض مع الحياة . . عند « توفيق الحكيم » بل إنه على العكس . . قد أتاح له أن يوقع النغم المناسب . . الملىء . . بالأصداء والرنين . . أو بما يختار الفنان أن يشحنه به من معان – ففى «يوميات نائب فى الأرياف » . . يرد الوصف الواقعى . . لحال الفلاحين

. . فى سياق عقدة روائية – شبه بوليسية – لا يكشف المرء . . غموضها أبداً . . كما فى ذلك الشعر الغامض . . الذى ساقه على لسان « شريد به خبل » هو « الشيخ عصفور » وهو يتغنى بمحبوبته . .

هذه الخيوط المتشابكة يحذق الكاتب . . جدلها بمهارة الفنان . . لينتج صورة تطبع على صفحة النفس أثراً أكثر شمولاً لوقائع الحياة – الحياة فى الريف المصرى – تلك الوقائع التى كان يراها . . والتى يقوم فيها – إلى جانب ما كان يستهجنه – ويعلنه من شقاء الفلاحين – ذلك الجانب الشاعرى الغامض . . وتلك الجرائم . . التى كان يدرك أكثر من سواه . . أنه لا سبيل لامرىء . . أن ينفذ إلى سرها .

وفى الوقت ذاته . . نرى أن « الحكيم » يجيد استخدام وسائل الفن المختلفة . . لخدمة الموضوع . . ففى « عودة الروح » وفى « ذكريات فى الفن والقضاء » وفى تمثيلياته الفكهة . . نجد أن الفن يتمثل دائماً فى بنيان الإنتاج الأدبى . . وفى الأسلوب . . مستخفياً بحيث يدع الصورة تبدو بمظهر واقعى محض . . وهذا عين ما حدث فى « الصفقة » . . فهنا عمد الكاتب إلى تجربة استخدام . . لغة عامية تماماً . . ولكنها تخضع لقواعد اللغة العربية الفصحى . . وهذا مثال للفن المستتر . . الذى يسمح بعرض الواقع بكل ما له من نكهة . . شعبية . . أرضية . .

وبوسع المرء أن يقول : إن الفن كان دائماً . . العنصر الجوهرى فى حياة « الحكيم » بأسرها . . فلا يعرف أحد فى حياة هذا الكاتب . . عاطفة جامحة . . أو عملاً سياسياً خارج نطاق الفن . . فإن الرجل المتمثل فى شخصيته . . اعتاد أن ينظر إلى الأحداث السياسية . . وإلى

الأشخاص الأعزاء لديه . . وإلى المواقف الخاصة . . والمواقف القومية . . خلال فنه . . فنجد أن الفن قد خدم هذا الفنان . . فى التعبير عن حبه وعن عواطفه . . وللتسامى بأحزانه . . وصدماته النفسية . . وليحقق - فى دنيا المسرح - أهواءه وأمانيه . . فيبنى واقعاً يخضع للقواعد والقوانين التى يفرضها الفنان . . فكان الفن - والفن المسرحى . . بوجه خاص - ملاذ « توفيق الحكيم » من قسوة الحياة . . ففيه الأمل الذى يمنى نفسه بتلك الجنة المصطنعة ، التى بهرته على مسارح الفرق التمثيلية المتجولة . . وهو بعد - صبى صغير . . فالفن له - كما يشتهيه « أرسطو طاليس » . . مطهر لنزوات نفسه . . ومحقق لها فى دنيا لا تخضع للمصادفات . . وإنما تخضع فيها إرادة الغير لإرادته الشخصية . . أو لإرادة الفنان الكامن فى نفسه على الأقل . .

على أننا يجب ألا نستنتج من هذا أن « توفيق الحكيم » داعية من دعاة « الفن من أجل الفن » . . يعيش حبيساً فى طيات فنه كمن يعيش فى برج عاجىّ . . فهو يستطلع خلال عدسة الفن وحدها كل جواهر . . الدنيا التى كان يراها فى الواقع . . بكل أدواتها الاجتماعية وديمقراطياتها الزائفة . .

إن « توفيق الحكيم » يعيش الأحداث خلال فنه . . فساهم فى الجهاد الوطنى والسياسى والاجتماعى . . متكلماً بألسنة شخصيات تصيح من وراء قناع الفن المجسم . . كما كان يحدث أيام الإغريق . . وهى طريقة تضخم صوت الإنسان . . كما هو معروف . . كى يصل إلى أسماع الحشد الذى لا حصر له . .

وحتى كتابه « من البرج العاجى » إنْ هو إلا صيحة المؤلف بخيبة أمله فى سلطان رجل الفكر – أمام رجال السياسة . . وبالعزلة التى يصادفها الكاتب فى أداء رسالته وهو يصف الحياة . . ويكشف عما فيها من قوى مسيطرة . . وهى مهمة أشبه بمهمة الكورس فى «التراجيديات» القديمة . . هذه الخواطر . . ذات الطابع الفردى . . تحمل فى الواقع دليلاً على موقف الكاتب فى مجتمع لا يأخذ رسالته مأخذ الجد . . مجتمع يبلغ عدم فهم الفن فيه درجة أبلغ إساءة إلى سلامة ضميره . .

وبعد . . فما هى الفكرة التى تساند . . وتوضح حقائق الحياة التى يعرضها « الحكيم » فى مسرحياته الكبرى المستمدة من الأساطير . . والقصص الدينى . . ؟ إن « أهل الكهف » و « شهر زاد » . . و«سليمان الحكيم » . . و « بيجماليون » . . و « أوديب ملكاً » تكشف لنا عن أصول هذه الفلسفة . .

لقد حاول « الحكيم . . كمعارض لمذهب « الإرادة » بطبعه – أن ينقض فلسفة أوروبية معينة . . لا سيما مذهب « نيتشة » بالذات . . فالمرء فى نظر « نيتشة » وكذلك فى نظر « أندريه جيد » وغيرهما . . حر . . مطلق الحرية . . ومنفرد تمام التفرد فى الكون . . وقد أراد الحكيم أن يبين فى تمثيلياته أن الإنسان ليس السلطان الأوحد . . ولا هو حر . . مطلق الحرية . . « وإنما تنبع عظمته من نضاله الباسل فى سبيل الانتصار فى حرب مستحيلة . . ضد القوى غير المرئية . . المسيطرة على مصيره » فنرى الكاتب . . يعيد ذكرى الحكمة الإغريقية القديمة . . التى تتجلى بأقوى تعبير . . فى التمثيليات التراجيدية الإغريقية . .

ولكنه يصوغ هذا الفكر العميق فى قالب حديث . . وهذه القوى الخفية التى توجه مصيره . . والتى يناضلها ، هى قوى لم تعد تتمثل فى آلهة العصور الغابرة . . ولا « القدر » بمفهومه القديم وإنما هى – لدى توفيق الحكيم – قوى طبيعية . . تنبع من وجود الإنسان نفسه . . فهى قوى توجد فيه هو الآخر كذلك – فى داخله – وليست خارجه . . ؟

ففكرة الزمن – مثلاً لم تعد تتمثل فى الإله . . « كرنووس » أبى الآلهة عند الإغريق – وإنما هى قانون طبيعى من قوانين الإنسان . . حقيقة واقعة تؤلف جزءاً من نسيجه ذاته . . وتمكنه من أن يعيش . . وهى تأسره فى الوقت ذاته . . فالكهف . . فى « أهل الكهف » هو سجن الزمن – وهو سجن غير مادى . . ولكنه فى الوقت ذاته جزء من وجودنا . . بحيث أن الاتصال بين أهل العصر الذى نوجد فيه . . وبين من هم ليسوا معاصرين لنا . . يصبح مستحيلاً . . أى أن الإنسان ليس حراً فى التحرك داخل الزمن . . أو الحياة فى أفكار غابرة . . حتى لو أراد ذلك إنها دعوة إلى مقاومة الرجوع إلى الوراء . . لأن كل عصر . . له حياته وأفكاره . . وقد ظهر فيها « إفلاس البعث » إلى نفس الحياة السابقة . .

والقوة الأخرى . . التى تمنع الإنسان من أن يكون حراً . . هى إنسانيته . . وكونه مخلوقاً . . بين الحيوانية والروحية . . وهذا هو الطابع الذى يتجلى بقوة فى « شهر زاد » . . فقد أراد « شهريار » أن يتخلص من كل ما كان يجعله إنساناً ضعيفاً كغيره من البشر . . وبعد أن أطلق العنان لشهواته فى كل اتجاه . . وبعد أن اغترف من كل الملذات والمباهج . . أراد أن يتجرد . . لا من الجسد وحده . . بل كذلك من

الأحاسيس . . والعواطف . . من الحب أو الغيرة . . أراد أن يصبح معرفة خالصة . . أراد أن يجعل « المعرفة » فوق الإنسانية . . أراد على كل حال أن يتجاوز نطاق الجاذبية الإنسانية فى أى اتجاه . . على أن «شهريار » فى رأى « توفيق الحكيم » رغب فى أن يهجر الأرض . . بحثاً عن سماء عليا مستحيلة . . فكان مقدراً عليه أن يبقى معلقاً بين السماء والأرض . . نهباً للقلق – وما شهريار سوى مثال لذلك الإنسان الأعلى الذى يرقى فوق مصاف البشر . . الإنسان الذى كان « نيتشة » يبشر به . . وهو فى رأى « توفيق الحكيم » لم يصل فى سعيه إلى شىء . . إنه أيضاً قد أفلس . .

ومثال آخر ضد نظريات « نيتشة » و « أندريه جيد » ذلك هو «أوديب ملكاً » كما صوره . . « توفيق الحكيم » فقد استعرض الكاتب المصرى دور « تيريسياس » – الكاهن الأكبر – على ضوء جديد مبتكر – فإن هذا الكاهن الأكبر . . الذى لم يكن يؤمن قط بالآلهة التى تمارس طقوس عبادتها . . لمن أروع الشخصيات . . « الحكيمية » التى تصور نظريات « نيتشه » لتسخر منها فى النهاية . . فقد كان « تيريسياس » – فى الواقع – على ثقة لا حد لها بنفسه . . حتى لقد رغب فى أن يقوم بدور الآلهة . . وأن يصنع للغير قدرهم . . ومصائرهم . . وكان يعتمد – فى تحويل المستقبل – على إرادته وحده . . وقد أراد أن يغير نظام الوراثة فى البيت الملكى . . لمجرد إرضاء غروره بالعبث بمصائر البشر . . ومن أجل هذه الغاية . . أقنع « لا يورس » بأن ابنه مصدر خطر على حياته . . لأنه لن يلبث أن يقتله بمجرد أن يبلغ سن الرشد . . ومن ثم . .

أشار على « لايورس » بالإيعاز بقتل ابنه .. ثم كان هو نفسه «تيريسياس » الذى ابتكر فيها بعد .. كل الشائعات عن خرافة «الوحش الرهيب » مستغلاً فى ذلك .. الخوف الذى نشأ عن وجود حيوان كاسر هاجم بعض المارة .. ثم كان هونفسه الذى أعلن أن الذى يخلص البلاد من الوحش الرهيب سيتزوج الملكة .. ويتولى الحكم .. وقد رغب فى أن يضع بذلك نهاية لنظام توارث الملك .. بأن يدفع إلى العرش أول قادم .. وكانت هذه مؤامرة .. لا تستغرب من « الإنسان » .. وقد رد عليه « القدر » بسخريته المعهودة .. فأنقذ « أوديب » وأرسله هو نفسه إلى البقعة التى يقوم فيها بالدور الذى دبره « تيريسياس » ..

هكذا صور الحكيم إرادة الإنسان الأعلى .. كما كان يرجوها « نيتشة» .. صورها .. وهى تتحرك فى نطاق أوسع من نطاقها .. فى نطاق إرادة أخرى .. غير منظورة .. ولا يهم بعد ذلك أن يسمى الإنسان هذه الإرادة .. ربا .. أو قدراً .. أو مصادفة .. إن عظمة الإنسان ليست فى أن يرى نفسه الكائن الأعلى .. الحر الأوحد .. ولا فى أن يرى نفسه .. صنواً للآلهة .. وإنما فى أن يعترف بوجود هذه القوى غير المنظورة – التى تعترض طريقه .. والتى لابد له من أن يناضلها .. دون هوادة ..

ومع ذلك فإن النضال .. لا يهدف إلى قهر هذه القوى .. وإنما هذا النضال .. ضرورى من أجل الحياة ذاتها .. ضرورة لكى يستطيع المرء أن يعيش .. إذ أن الحياة لا تُوهب جامدة .. وإنما هى تُصنع من صراع دائب .. بين القوى المتعارضة فى أعماق نفوسنا .. وأن

«بيجماليون» لمثال . . بين الكفاح الدائر أبداً بين الواقع . . والمثالية . . فالإنسان لا يقنع إذا ما حظى بالواقع . . ولا هو يقنع إذا ظفر بالمثل الأعلى . . ذلك لأن الإنسان يشترك فى نظامين . . يتصارعان باستمرار فى أعماقه ، ولا ينبغى لأحدهما أن يتغلب . .

وأخيراً . . بين « توفيق الحكيم » فى « سليمان الحكيم » أن الإنسان يقع كذلك ضحية لقوته الذاتية . . التى تستطيع أن تفقده الحكمة . .

إن القوى الداخلية . . والقوى الخارجية . . سواء بالنسبة للإنسان . . فكل منهما جزء من الطبيعة . . والحرب بينهما - دونما أمل . . فى سلام حاسم - هى قاعدة الحالة الإنسانية . . وقانونها . . لأن أى انتصار حاسم . . ونهائى لعنصر منهما . . فيه ضياع للإنسان . .

ولقد اتهم « الحكيم » بأنه متشائم فى فلسفته عن الإنسان ، ومصيره . . ولكن . . هذه رسالة الكاتب . . هى أن يصطنع دنيا كاذبة ، وإنساناً زائفاً - ليصور الإنسان حراً . . كأنه إله - حرية مصطنعة . . ترضى غروره وتعميه عن الحقيقة .

لقد رأينا إلى أى مدى كان الفن جزءاً من حياة « توفيق الحكيم » ذاتها . . أو بالأحرى - كيف كانت حياته جزءاً من الفن . . فمن المستحيل عليه . . أن يحرف ما يؤمن بأنه حقيقى . . دون أن يشوه الصورة التى يرسمها لنفسه . . وللدنيا . . إن ممارسة أى لون من الواقعية الحقيقية فى دنيا الفكر . . وفى النظرة إلى العالم . . ليست تشاؤماً . . ولا تفاؤلاً . . لا سيما عند « الحكيم » بالذات . . فإن رسالة الكاتب - عنده - هى فى تصوير الإنسان بحجمه الحقيقى . . بالنسبة للكون . . وأن يكشف

ويبين الأخطار الداخلية والخارجية . . التى تتهدده . . وأن يحدد بدقة مجال ووسائل الصراع اللازمة فى سبيل الحياة . . وفى سبيل التقدم نحو الحرية . . ونحو الأمانى السامية . .

كذلك يقف « توفيق الحكيم » على مسافة بعيدة من الطرف الأقصى الآخر . . « الوجودية الحديثة » التى ترى الحياة عقيمة . . ووجود الإنسان . . لا معنى له . . فحياة الإنسان عند توفيق الحكيم . . لها معنى . . – هو سعى الإنسان الدائم إلى التوازن . . أو التعادل – شأنه شأن الكواكب – بين قواه هو فيما بينها . . ثم بالنسبة إلى قوى الكون الأخرى الظاهرة . . والخفية . . التى تحيط بها من كل جانب . . هو يناضل . . حتى لا تجذبه قوى العدم . . كما جذبت كواكب ضخمة . . ووسيلة نضاله . . هى اكتشافاته الدائمة لمنابع قوى جديدة فى أعماقه . . يناهض بها . . ويوازن . . ويعادل قوى الكون التى تتهدده . . هذه الاكتشافات الدائمة لنفسه ولقواه . . هى فى ذاتها غاية للوجود الإنسانى . . أنبل غاية . . لحياة الإنسان . . هى اكتشافه الدائم لقواه . . لأن عملية الاكتشاف عنده . . تولد حركة خلق متجددة . . فيها كل معنى الحياة المثمرة . . لهذا كان لابد من أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه . . فى اكتشافه لها . . وتلك رسالة الأدب الحقيقى . . فى نظر «الحكيم » . .

على أن توفيق الحكيم . . متفائل صراحة فى قصصه وتمثيلياته الوطنية والاجتماعية التى يكشف فيها – هى الأخرى – الأخطار التى تتهدد الفرد اجتماعياً . . لقد رُدت الروح . . وبُعثت فى مصر . . بفضل الجهاد

والثورة الوطنية . . وهذا موضوع عاد يعالجه ويصوره بصورة أخرى فى «إيزيس» . . وإذا كانت «يوميات نائب فى الأرياف» قد عمدت إلى كشف بؤس الفلاحين . . دون الإيحاء بعد - بأى أمل . . لأن الكفاح العملى . . ضد الشقاء والفقر . . لم يكن قد بدأ - بعد نشر الكتاب ذاته - كان من أسباب البدء - فإن «الصفقة» على النقيض إذ أنها تبين الفلاحين وهم يصارعون حالتهم الاجتماعية . . وتبشر بالانتصار . . وهنا نجد القوى المصطرعة داخل نفس الإنسان . . تتمثل فى الأنانية والغش . . فى جانب . . والتضامن والتعاون فى جانب آخر . . أما القوة غير المنظورة فتتجلى فى غريزة سيطرة المال . . ويبين المؤلف هنا : أن من الممكن خوض هذا الصراع . . والفوز فيه !

ومن ثم . . فمن رأى الحكيم . . فى مضمار النضال القومى . . أو الاجتماعى . . أو السياسى - أن حرية الإنسان تعمل على تحسين مصيره . . !

وكما أن من الخطأ القول بأن «الحكيم» متشائم - فى المثل الأول - فمن الخطأ أيضاً . . القول . . بأنه متفائل . . فى هذا المثل الأخير . . ذلك أن «توفيق الحكيم» إنما يسعى إلى إبراز ما يعتقد فى الواقع . . ولكن واقعيته . . لا تقتصر على رسم كل دقائق الأحوال المادية . . لأن هذا فى نظره بتر لحقيقة الحياة . . ! وإنما واقعيته هى أيضاً . . واقعية الفكر والمتضادات النفسية والخلقية . . التى تنطوى عليها طبيعة الإنسان . . وطبيعة الوسط الفكرى . . الذى يعيش فيه . .

على أننا نجد . . وراء كل هذا . . أن مجال الفن . . هو الذى ينقذ الإنسان . . فى خضم المتناقضات وألوان الصراع التى لا تنتهى . . والتى يفرضها عليه واقع الدنيا وطبيعتها الحقيقية . . وهذا مالم يدخل راحة فى الفلسفة التى عبر عنها « توفيق الحكيم » . . بل إن من الممكن القول . . بأنه ذهب فى « بيجماليون » إلى العكس . . إذ بين أن الفن وحده لا يكفى . . وراح هو فى محاولة طويلة يسعى إلى إعادة تشكيل الدنيا والإنسان . . دون أن يموه على نفسه . . أو يخدعها . .



الملامح الداخلية لتوفيق الحكيم

« أما أنا .. فليس لى فقط ماضٍ قريب .. أمامى أن أنفذ أيضاً .. إلى ذلك الماضى السحيق .. الذى كادت تُدرسُ مَعَالِمه تحت رمال الزمن .. وأن أنْفُذَ إلى سماء المستقبل .. من خلال غيوم الحاضر » .

« توفيق الحكيم »



من برجه العاجى . . وفى عام ١٩٤١ . . كان الحكيم فى الريف . . يرتل نشيد السلام . . فشجيرات الفول الخضراء تتراقص مع النسيم . . وترسل فى الفضاء من حوله . . أريج زهرها الأبيض . . كما ترسل القبلات المعطرة . . والبقرة ذات الأهداب الشقراء . . تتمطى فى أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ فى فراش دافىء والكلب رابض . . قد أغمض عيناً وفتح أخرى . . تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء . . والدواجن والهوام . . والأرض السمراء . . وجداول الماء . . كلها بأصواتها الصغيرة . . وأزيزها اللطيف . . وصمتها الدائم وخريرها الهامس . . تتراءى للمتأمل . . كأنها تتبادل حوارا خفياً منغما بكلمات الود . . والحب . . والإخاء الأبدى . . وكأنها جميعاً فى حركتها . . وسكونها . . جوقة موسيقية . . تخضع ليد غير منظورة ، كى توقع لحناً متناسقاً . . أزلياً . . لايسمعه غير الأنبياء والشعراء . .

صوت واحد . . نشز فى أذنه عن هذه المجموعة . . هو صوت الإنسان . . فمتى ظهر ظهرت معه الفوضى . . ونشأ خلاف . . حيث لا ينبغى أن يكون خلافاً . . تلك طبيعته . . وقد تكون تلك أيضاً عبقريته .

إن حنايا الحكيم . . تحوى . . كنوزاً . . ظلت خافية . . والإيمان

بالحياة . . هو ما جعله يساند فتاة فى إحدى المصحات . . وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ لقد جعل هذه الفتاة تقاتل الموت . . حتى انتصرت عليه . . وسارت فى طريقها إلى الشفاء .

ويحكى الحكيم قصة هذه الفتاة . . فيقول :

● لقد كانت هذه الفتاة تجلس الساعات الطويلة . . فى فترة النقاهة . . تقرأ . . وتفكر . . وتتأمل . . هى فيما يبدو . . قد فقدت بعض إيمانها بالحياة . . وخيل إليها . . أن الأفق ملبد بالظلام . . فهى تمد يدها تلتمس النور . . إنها كسفينة غالبت الأمواج . . وقارعت الأنواء . . وخرجت من زوبعة الليل . . بعد أن كاد يطويها اليم . . تتمايل . . وتئن . . باحثة عن الهداية فى شعاع منارة . . أو خيط فجر . . اتجهت إلى . . أنا . . لأدعم إيمانها . . وأبدد حيرتها . . وكان الواجب أن أجيبها فى رسالة خاصة . . فالأمر يعنيها وحدها . . ولكن خطابها الحامل عنوانها . . ضاع منى . . ووقعت أنا فى حيرة من أمرى . . لا أدرى أأسكت عنها . . أم أخاطبها فى كتاب . . ؟

وأخذت الحل الأخير . . لأنى خجلت أن أصم أذنى . . وأقبض يدى . . عن نفس تتخبط فى الشك . . وتطلب الغوث «أيتها الفتاة . . أتدرين أين المنارة التى تهديك إلى الإيمان . . هذه المنارة . . قائمة بين جنبيك . . إنها قلبك . . هذا القلب الذى ظل ينبض فى أحلك ساعاتك . . كما ينبض محرك السفينة فى أعنف ساعات العاصفة . . هذا القلب . . لماذا استبسل . هكذا . . دفاعاً عن الحياة ؟ . . لماذا

لبث يدق دقات كأنها صرخات فى وجه الفناء . . يفزعه بها . . ويرده على أعقابه . . ؟ لماذا يسير بخطواته المنتظمة أو المضطربة الليل والنهار. . لا تهدأ له حركة . . ولا تخمد له نبضة . . ولا يخرس له لسان. . ؟ وإنه حارسنا . . ضد الموت . . إنه على حصن حياتنا الديدبان . . قلبك يذود عن الحياة . . ويناضل عنها نضال البطل . . لأنه يؤمن بالحياة !

إنما الذى يشك . . هو عقلك . . هو تفكيرك . . ومنطقك . . هو ذلك الشىء المصطنع فينا . . ذلك الشىء الذى اخترعناه . . وملأناه بأيدينا . . أما القلب المؤمن بالحياة الحارس لها . . الذائد عنها . . دون أن نتدخل فى عمله . . فهو ذلك الجزء الذى وضعه الله . . لايستطيع عقلنا لحسن الحظ . . أن يصدر أمره إلى الأيدى والأقدام . . فتقف حركتها . . لا أحد غير الله هو الذى يستطيع وحده أن يصدر أمره إلى القلب . . ولقد أمر الله تعالى قلبك . . أن يصمد للمحنة . . فصمد. . ومادمت قد انتصرت على الموت . . فلماذا لاتنتصرين على الحياة ؟ . . ما الذى يخيفك من غدك؟ . . أشباح . . ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك ومطالعاتك . . وتأملاتك . . ليس أقسى علينا . . من خيالاتنا . . ليس أفتك بنا من أيدى إراداتنا . . وصُنْع أيدينا . . وليس أرحم بنا . . من يد الله. . وما خلق . . وأبدع . . نصيحتى إليك أن تتركى الكبت برهة . . وتتأملى الطبيعة . . استيقظى مع الفجر . . واستنشقى نسماته . . وأصغى إلى العصافير وهى تفتح أعينها . . وتترك أعشاشها . . وتقف قليلاً فوق الأغصان المرصعة

بالندى . . تنفض ريشها . . وتشقشق . . وتنشر أجنحتها . . وينقر بعضها البعض مداعباً . . ويفر بعضها من بعض ملاعباً . . كلها غبطة بالفجر . . وكلها فرح بالحياة . . لايقعدها عن ذلك . . سحب ملبدة . . ولا جو مطير . . إنها تحتفى بالفجر فى اليوم المشرق . . واليوم المكفهر . . وتحتفل بوجودها . . إذا صفا الأفق . . وإذا أظلم بالضباب . . لكأنها أنشودة الحياة . . تطير فى الجو . . صادحة منذ مطلع النهار . . تلقى فى سمع القلوب اليقظة المؤمنة . . ما يملؤها تفاؤلاً بالوجود . . واستبشاراً .

أيتها الفتاة . . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك . . لا تلتمسى المعونة عند مفكر . . ولا عند عالم . . ولا عند فيلسوف . . بل التمسيها عند عصفور . . ذلك العصفور الصغير . . الذى وضعت فيه قدرة الله . . إيماناً بالحياة !

■ ■ ■

● الموت . . كيف ترى الموت . . ؟ وكيف تفسره . . ؟

أنا والموت . . يربط ما بيننا سر . .

لست أدرى . . ما سر العلاقة بينى وبين الموت . . ليس فقط اليوم . . ولا الأمس القريب . . بل منذ الطفولة . . كنت أصاب بحمى تلزمنى الفراش نحو ثلاثة أيام . . كلما وقع بصرى على جنازة مارة فى الطريق . . وعرف أهلى ذلك . . فكانوا يحرصون على تجنيبى منظر الجنازات . . وأذكر يوماً . . كنت مع جدتى فى مركبة عائدة بنا من

السوق . . إلى البيت . . وكنت فى أتم صحة وسرور . . وإذا بجنازة تظهر فجأة عابرة شارعاً بعيداً . . أبصرتْها عين جدتى . . فسارعت تهمس للحوذى . . أن يحيد بمركبته عن ذلك الشارع . . وحسبت المسكينة أنها قد أفلحت في إنقاذى من الحمى هذه المرة . . ولكنها شعرت برعدتى . . ورأت وجهى يشحب . . ويتصبب منه العرق . . فأدركتْ أنى لمحت الجنازة . . ساعة أن لمحتها هى . . وأن الحمى قد سرت فى جسمى . . وانتهى الأمر . .

وهذا ما حدث بالفعل . . ولكن يبقى إلى اليوم السؤال ؟

ـ ماهى العلاقة . . بين شىء خارجى . . كمنظر جنازة مارة . . وهذه الإصابة السريعة بمرض داخلى . . كالحمى ؟

لم يخطر على بالهم هذا السؤال . . وكانوا يكتفون بعلاجى . . بعلاج الحمى فى هذا العهد . . بكمدات الملح . . والخل . . ونحو ذلك . . حتى أبداً . . وتتكرر الإصابة . . لعين السبب . . ويتكرر العلاج . . بعين العلاج . . وهكذا . . حتى كبرت . . وقرأت شيئاً كهذا . فى إحدى قصائد الشاعر «جوتة» . . حكى فيها . . «أن طفلاً » تعلق بصدر أبيه . . ليحميه من صوت خفى . . فأخذ يغريه برائع الهدايا من اللعب . . والأزهار . . كى يذهب إليه ويمضى معه . . وحسب الأب كلام ابنه عبث أطفال . . فلم يأخذه مأخذ الجد . . إلى أن بلغ بابنه . . عتبة البيت . . فإذا بابنه الطفل . . قد فارق الحياة . . ؟

أترى الأطفال فى صفائهم الملائكى . . يحسون . . ويسمعون . .

دبيب أقدام . . ملك الموت . . ؟ ويبتسم الحكيم . . ويقول :

ولكن . . معى . . معى أنا . . لم يحاول ملك الموت إغرائي . . أو استدعائى . . ولكنه اكتفى بأن أشعرنى بوجوده . . وأرانى ظله غير الواضح . . يمر من بعيد . . وكان ذلك . . وحده كافياً أن يقعدنى مريضاً . . لبضعة أيام .

● واليوم . . ما أنا اليوم . . ؟

اليوم بعد الثمانين التى عشتها . . أصبحت علاقتى به . . مودة وألفة . . وأنا الذى أطلبه . . فيهرب منى . . ويبسم . . ويسخر . . ويجعلنى أسخر من جنازتى . . ومن الجنازات المارة . . وأقول :

ـ آه لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام . . ماذا كان يصنع؟ لو علم أن هؤلاء المشيعين لايتكلمون عنه طول الوقت . . مع أنهم يقولون إنهم جاءوا من أجله . . وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة . . إذا طال المشى . . وأن منهم من يسلّى نفسه وجاره أثناء السير بحكايات ونوادر . . قد تدعو إلى الابتسام . . أو الضحك المكتوم! . . وأن منهم . . من يتكلم فى عمله . . ووظيفته . . وتجارته . . وبيته . . وغيطه . . وعمن يخلفه فى العمل . . وعمن يرثه فى التركة . . وأن كل ما أنفِقَ من وقت المشيعين فى الخشوع لجلال الموت . . لا يتجاوز لحظات . . وأن الصمت الرهيب المفروض إحاطته بنعشه لم يدم أكثر من دقائق . . ثم بدأ التهامس يعلو . . والهمهمة ترتفع . . والثرثرة تدوى بين الصفوف فى طنين كطنين الذباب . . ذلك أن الناس غير قديرين

على نسيان أنفسهم والسمو عن هذه الأرض . . والارتفاع عن شئون حياتهم العادية ودنياهم الفانية أكثر من بضع دقائق . . ومع ذلك . . لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت . . موقفاً أجل من هذا . . وهو بعيد عنهم . . ومختبىء داخل هذه الخشبة المكسوة بقماش . . يتفق مع حالة الميت . . وسنه ونوعه . . إن الموت لايعنى شيئاً . . إلا فى نظر الميت نفسه . . إذا كان يشعر . . أو يدرك . . وأن رحمة الله . . ورأفته قد جنّبتاه الشعور والإدراك لهذه اللحظة التى يرى فيها الدنيا التى ألفها . . قد بعدت عنه كما تبتعد المحطة عن أنظار المسافر فى القطار . . ويرى المودعين ينصرفون من باب المحطة إلى شئونهم . . ضاحكين راضين بانتهاء قيامهم بواجب التشييع والتوديع . . وانتهى الأمر على ذلك . .

ماذا كان يقول الميت فى هذا . . لو أعطى القدة على الإدراك والكلام . . أنا شخصياً . . أعتقد أن الميت لن يقول شيئاً . . فالميت إذ يجتاز عتبة العالم الآخر . . ويدخل منطقة « الصفاء » . . ينظر إلى الناس . . وأحوالهم . . ودنياهم من عَلٍ . . كما ينظر الإنسان إلى سرب من النمل . . يحمل جناح صرصور إلى ثقب فى أسفل الحائط . . إنه يستكثر على الناس . . مجرد التحرك فى تابوته . . لينظر إلى ما يفعلون . . أو يقولون . . حتى ولا مجرد الابتسامة الساخرة منهم . . ومن أحوالهم . . تعلو شفتيه الجافتين . . ويستطرد الحكيم :

والأصباغ . . والباروكات . . مما يعرض فى الإعلانات . . ومع ذلك

.. يوجد نوع من الجمال ، لا تصل له مساحيق الحسناوات .. ولا إعلانات التليفزيونات .. هو « الجمال الداخلى » وأترك لذكائهن مهمة البحث عن وسائله .. ومصادره .. عفواً .. لقد نسيت أنى ميت .. وأنه ما كان يليق بى أن أوجه إليكن مثل هذا الكلام .. فى مثل هذه اللحظة الرهيبة .. أنتن ولا ريب تصغين إلى قولى الساعة .. والغيظ فى نفوسكن .. ولولا جلال الموت .. لألقيتن على قبرى أحذيتكن ذات الكعب العالى .

إن كل ما ستفعلنه الآن .. عقاباً لى .. وامتهاناً لشخصى .. هو أن تخرج كل واحدة منكن أصبع الأحمر .. وتنظر فى مرآة حقيبتها الصغيرة .. لطلاء شفتيها .. ثم تهز كتفيها قائلة لجارتها :

ـ « والنبى الدموع فيه خسارة » .. ؟

ثم تخفى منديلها المعطر الذى كانت قد أعدته مقدماً .. لتمسح به دمعة عند اللزوم .

وهذا ما أريد أن أصل إليه .. وهى نصيحتى الثمينة لكن .. معشر النساء العزيزات :

« حذار أن تُتْلِفَ أَية واحدة منكن هدباً واحداً من أهدابها الجميلة من أجل شىء على هذه الأرض .. فإن الأرض لا تساوى هدباً من أهدابكن .. ؟

وأما أنتم أيها الرجال والأصدقاء المحزونون .. لفداحة المصاب الجلل

. . (وبينى وبينكم . . لا هو فادح . . ولا هو جلل) . فأنا أشكر لكم حبكم وتقديركم . . وأرجو أن تعذرونى إذا سألتكم :

« حتى يتركنى الأدب . . وقد صرت ترابا أَمَا يكفيه أنه أضاع منى حياة . . صنعها خالقها الأعظم من لحم ودم . . فأحلت أنا لحمى . . إلى ورق . . ودمى إلى مداد . . آه . . إنكم لو أنصفتم معشر المشيعين . . لوضعتم جثتى مع كتبى . . وأشعلتم النار فى كل هذا . . ما من شىء عندى . . الآن . . له معنى . .

كل شىء على الأرض أصبح فى نظرى لا شىء . . هل نظرتم ذات مرة . . إلى الأرض . . من نافذة طائرة . . وأنتم على ارتفاع بضعة من الأميال . . هل أبصرتم شيئاً على هذه الأرض . . ؟ هل أبصرتم الناس . . ؟ هل استطعتم من هذا العلو الشاهق . . أن تميزوا بين حشد من الآدميين . . وحشد من النمل . . ؟

ولكنه الإنسان . . هذا الكائن . . وما ركب فى طبعه من خيال وغرُور . . أما بعد . . فلا أحب أن أستبقيكم أمام قبرى أكثر من ذلك . . فلا شك أن بينكم من ارتبط بمواعيد سابقة أهم . . وهو يختلس النظر إلى ساعة يده من آن . . لآن . .

وليس عندى بعد . . ما أقوله لكم . . غير أنى أرى بينكم أصدقاء وأحياء لا يمكن أن أستخف بعواطفى نحوهم . . ولعل الصداقة والحب . . هما خير ما خرجت به . . من تلك الدار الفانية . . والوداع . .

■ ■ ■

وما يرويه الحكيم عن الموت وعن الآخرة . . من أن الشاعر الهندى . . والقطب الروحانى . . طاغور تخيل لما يمكن أن يسأله فيه ساكن الدنيا . . بعد أن ينتقل هو إلى الدار الآخرة . . فقال له السائل :

- أخبرنى يا طاغور . . كيف حالك الآن فى حياتك بعد الموت ؟

فأجابه طاغور بقوله :

هذا السؤال إذن . . عما يمكن أن يقوله الميت . . لا معنى له عنده . . إنما هو سؤال يمليه علينا نحن البشر الأحياء . . غرورنا الدنيوى . . أما أنا . . فلو رغبت فى شىء بعد الموت . . فهو أن أقوم فى الناس خطيباً . . أقول لهم :

- سيداتى وسادتى . . أولاً . . فلتجفف السيدات أعينهن حتى لا تمسح الدموع . . طلاء وجوههن . . وصبغة شفاههن . . وهذا هو المهم . فأنا مازلت حريصاً على أن تكون المرأة جميلة . . فالجمال مهما يكن نوعه . . من خارجى . . وداخلى . . هو العذر الوحيد الذى به نغتفر للمرأة فيه كل تفاهتها . . وحماقتها . . والنساء جميعاً اليوم . . والحمد لله . . جميلات . . والفضل للمساحيق . . وأنت . . كيف تريد منى أن أخبرك بشىء كلفنى العلم به . . أن أموت . . لكل دار علومها . . وهل كنت وأنا على الأرض أعلم الأموات كيف تريدون منى الآن . . بعد الموت . . أن أعلم الأحياء . . علوم الدار الأرضية يفهمها أهلها . . وعلوم الدار الآخرة . لا يدركها إلا أهلها . . مُتْ أولاً وأحضر إلى هنا فى الآخرة . . وأنت تعلم . . وتفهم !

وفى الحق . . كما يقول الحكيم :

من أدرانا بشكل الحياة فى العالم الآخر . . وإنه ليحضرنى ما يقال عن النبى – صلوات الله عليه – من أنه « يمزح . . ولا يقول إلا حقا » وقد سألته امرأة عجوز عن « الجنة » فقال لها : لا تدخل الجنة عجوز » فحزنت المرأة . . وعندئذ قال لها باسماً ما معناه . . أنها لن تكون عجوزاً عند دخول الجنة . . بل ستكون شابة – صبية حسناء . .

فالشيخوخة إذن . . والذبول فى الإنسان والشجر . . وغير ذلك . . هى صفات الدنيا الفانية . . أما الآخرة . . فلها صفات أخرى . . ومن أدرانا . . ربما كانت اللغة التى نتكلمها . . لا يكون لها وجود . . أو حاجة . . وقد تكون لغتنا فى الكلام هناك . . هى لغة الملائكة فى التسبيح :

هى لغة النور المقتبس من النور العلوى العظيم . . للخالق الأعظم . . كا أن حركة أبداننا . . ستكون مثل حركة الملائكة فى الفضاء . . عزرائيل . . والموت . . ويوم الثلاثاء . . ؟

● لقد كتب يوسف السباعى روايته « نائب عزرائيل » وأهداها إلى «سيدنا عزرائيل الجميل » وقال ما قال فى الغزل . . وأحسن الأيام . . ما أرجعك . . وكتبت أنت عن – صداقتك لعزرائيل . . مفارقات . . أم ماذا . .

– نعم . . مع عزرائيل . . قامت بينى وبينه . . صداقة . . صداقة شخصية – ولعل ذلك كان فى عام ١٩٤٥ – وكنت قد تركت خدمة

الحكومة . . وجلست عاطلاً على مقهى « ريتز » أفكر فى حياتى . . ولا أرى لها معنى . . وطلبت أن تنتهى هذه الحياة . . وناديت « عزرائيل » وكان يوم الثلاثاء أيضاً . . ومر رجل . . تخيلت أنه هو . . فى شكل بشرى . . فدعوته إلى الجلوس . . فجلس بجوارى . . وجاء الجرسون . . « خريستو » فطلبت لضيفى فنجاناً من القهوة . . فقال الجرسون :
– « مفيش بن » – فصحت به : كيف ذلك . . قهوة مفتوحة . . فارغة من البن . . وهو روحها . . أيوجد أيضاً عزرائيل للمقاهى . . يخطف روح القهوة . .

ونظرت إلى ضيفى قائلا :

– لا يمكن أن تكون أنت السبب . . فأنا أعرف عملك الشاق . . فى دنيا البشر . . ولا يمكن أن يكون من اختصاصك أيضاً « دنيا القهاوى » فهز رأسه . . ومضيت أنا أقول له :

– لعلك لا تعرف : أو لا تذكر أننى دافعت عنك ذات يوم . . لقد قلت : أيها الناس . . أتعرفون من هو عزرائيل . . إنه ليس صاحب الصورة البشعة التى يرسمها له المصورون الأوروبيون . . صورة الهيكل العظمى . . الحامل لمنجل . . يحصد به أرواح البشر . . لا . . إنه فى الحقيقة صورة للموظف الجد المظلوم . . إنه هو الجراب الذى تلقى فيه لعنات البشر . . هو العمل الصامت المتصل . . الذى لا يعرف فترة راحة . . ولا همود . . هو اليقظة بالنهار . . والسهر بالليل . . هو الذى يقوم بعمله المرهق وحده . . منذ وجد البشر على الأرض . .

يقبض الأرواح التى يزداد تعدادها على مدى الأحقاب . . فى كل يوم يضاف إلى ما يثقل كاهله . . صنف جديد . . من أصناف الفناء . . لم يعد الطوفان يكفى . . ولا الحروب . . ولا الطاعون . . والوباء . . لقد اخترعوا قنبلة ذرية . . تفنى مئات الألوف فى لمحة عين . . فيقع المظلوم– عزرائيل فى حيص بيص – يجمع بمفرده هذه الألوف المؤلفة من أرواح البشر . . بينما زملاؤه الأفاضل من الملائكة . . يجلسون مرتاحين . . اسألوا ماذا يصنع الآن . سيدنا « جبريل » لقد كان عمله الهبوط . . لتبليغ الأنبياء . . وقد انتهى ذلك بعد الرسول . . خاتم الأنبياء . . محمد عليه الصلاة والسلام . . فما هو عمله اليوم . . ؟ أما « إسرافيل » فعمله هو أن ينفخ فى الصور . . يوم القيامة . . فمن الآن . . وإلى يوم القيامة ماذا يصنع ؟

ويستمر الحكيم قائلا :

– عندئذ . . وجدت صديقى المظلوم . . « عزرائيل » الذى أدافع عنه . . يلتفت نحوى ويقول :

– إسمع يا . . يا هذا . . أنا لا أعرف لماذا دعوتنى . . وأنا ما جئت إليك . . ولكن جئت الآن . . من أجل أسرة . . لزوج . . وزوجته وحماته . . وستأتى سيارة مسرعة وتصدم المرأة . . فأقبض روحها .

فبادرت قائلاً :

– حماته طبعاً . ؟

فقال : لا . . بل زوجته .

فصحت فيه :

- حرام عليك . . تأخذ زوجته . . وتترك له حماته .

فقال :

- الأوامر . . وأما الحكمة والأسباب فعند ربى . . وأنا مطيع لأوامر ربى . . مهما تكن . . ولو قرأت كتاباً من تراثكم هو البداية والنهاية لأبى الفداء . . لعلمت لماذا صرت أنا ملك الموت . . وليس جبريل . . أو إسرافيل . . فالله تعالى عندما أراد خلق آدم من طين الأرض . . حتى صاحت الأرض من الألم . . فرجعوا عنها . . فلما أرسلنى ربى . . لم أرجع عن الأرض . . رغم صياحها . . حتى قبضت من ترابها . . كل الألوان . . التراب الأبيض . . والأسود والأصفر . . وبذلك جاء الجنس البشرى . . على كل هذه الألوان . . وهكذا كان من نصيبى قبض أرواح البشر دون الالتفات إلى صياحها . . أما قولك . . إننى مظلوم . . وأن زملائى من الملائكة فى راحة . . فهذا خطأ . . ولو كنت أنت مؤمنا . . حقاً لآمنت بالعدل الإلهى . . هذا العدل القائم على أساس الكينونة . . الممتدة . . فى الزمان والمكان إلى غير حدود وخطؤكم . . وضعفكم . . أيها البشر فى كون الرؤية عندكم بالبصر . . والبصيرة . . تتحرك داخل إطار مغلق على زمان محدود . . ومكان معلوم . . وما خرج من ذلك الإطار . . يدخل فى العلم الواسع . . الذى لا حدود له . . ولا قدرة لفكر البشر على تصوره . . أو إدراكه . . وأعطيك مثلاً

بسيطاً . . تستطيع فهمه عن الظلم والعدل فى حالتى . . فأنا مع امتداد الزمان . . وتغير المكان . . بقيام يوم القيامة . . والغاء الموت الآدمى . . سوف أرتاح أنا . . ويختفى الظلم الذى تتحدث أنت عنه الآن . . ومثل آخر . . فيمن ظلم . . فرداً كان . . أو جماعة . . أو جيلاً . . فإن العدل سوف يلحقه فى عقبه . . وخلفه . . فالحساب الجارى على الأرض . . لا يفتح لحياة واحدة . . ولا يغلق بانتهائها وحدها . . هل فهمت الآن . . من أين يأتى الخطأ . . ؟ إنه يأتى من قدرتكم المحدودة على النظر . . والحكم على الأشياء . . داخل نطاق المسافات المحدودة فى الزمان . . والمكان . . وقد نبهكم الله تعالى . . فى كتابه الكريم دائماً عما تجهلون . .

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ».

ولماذا أراد الله هذا العلم القليل . . لحكمة يراها هو تعالى . . ولعل ذلك لراحتنا نحن . . وسعادة البشر . . ولحثنا على أن نكتشف نحن بوسائلنا . . قدرة الله . . خطوة . . خطوة !

■ ■ ■

● ولماذا هذا الإغراق فى دياجير الموت . . والانسياب الروحى المدمر . . نحو الفناء . . ؟

واليوم يوم الثلاثاء . . وظلال الموت . . لم ترفرف دائما . . فى فكر راهب . . وحديث الثلاثاء . . يعلن باستمرارية فكر الحكيم . . فى التعايش بفكر الموت . . ؟

– لقد بدأت غربتى . . ووحدتى . . من يوم وفاة ابنى « إسماعيل » وكان فى يوم الثلاثاء . . لقد كانت السعادة ترفرف فى شباب شيخوختى . . وأنا فى السبعين من عمرى . . سعيداً . . بولدى إسماعيل وحياتى العائلية . . أما اليوم . . وأنا شيخ فى الثمانين . فقد وهن منى الجسد . . ولكن الفكر . . ما زال مشعا . . مشتعلاً . . يجتر الذكريات . . لذا فقد بدأت بممارسة لعبة الموت . . بالفكر . . والكتابة وأعتب على العمر . . الذى يأبى إلا أن يمتد . .

● إذن هو القلق . . أو التشتت . . فلقد قالوا عنك إنك « سجين القلق » . . وإنك عصفور فى قفص . . يريد أن ينطلق ؟

– نعم . . إنه القلق . . القلق . . لم أستطع منه فكاكاً . . ليس اليوم فقط بل طوال عمرى وأنا سجين القلق . . إننى فى حالة قلق دائم . . حتى عندما لا أجد مبرراً لأى قلق . . سرعان من ينبع فجأة من تلقاء نفسى . . هذا القلق الروحى . . والفكرى . . لا ينتهى عندى أبداً . . ولا يهدأ . . إننى سجينه . . سجين الأبد . .

● لننطلق قليلاً من هذا الإطار الموحش . . وتهيم فى سماوات الشعر . . وإرصاصات الوجدان . . فماذا يقول الحكيم عن الشعر العربى . . وجذوره . . فى تراثنا الأدبى . . ؟ وملامحه . . الداخلية . . فى فكر الحكيم . . ؟

– هو انطباع أصيل موروث سبق أن أعلنته ونشرته . . وأعيده الآن وهو : « أن شعرنا العربى . . له جذور عميقة . . فى تراثنا الأدبى . .

ولقد نال هذا الشعر . . تقدير كبار النقاد فى الغرب . . ولقد أشرت إلى ذلك . . فى كلمتى . . بمجمع اللغة العربية . . يوم انتخبت فى كرسى اثنين هما : عبد العزيز فهمى باشا . . وواصف غالى باشا . . وكان هذا الأخير . . بفضل تمكنه من اللغة الفرنسية . . ترجم إليها فى عام / ١٩١٣ كتباً ثلاثة عن الشعر العربى . . جعلت ناقد فرنسا المشهور فى ذلك الوقت « جول ليمتر » يقول :

« إن الشعر العربى فى مجال الإحساس . . والشعور . . أنقى شعر . . عرفه الإنسان . . فالأمانة والصدق . . والشهامة والصداقة . . واحترام المرأة . . والضيف . . والكرم . . وعظمة النفس . . والبطولات . . والفخر . . هى بعض ما يتغنى به ويعبر عنه هذا الشعر العربى . . وهو ما يسمو به . . عن شعر الأمم الأخرى . فحولة ونبلاً . . »

● هذا رأى الثقافة الأوروبية . . فى تراثنا الشعرى . فماذا قال المثقفون عندنا . . من أهل هذا الشعر . . وأصحابه . . ؟

- جاء شاعر عربى مصرى . . من بلاد الانجليز . . فبهر بشعر كيتس . . وشيلى . . وبايرون . . وغيرهم . . وهو الشاعر « عبد الرحمن شكرى » . واجتمع بصاحبيه : عباس محمود العقاد . . وإبراهيم المازنى . . وأصدروا ما سمى . . « الديوان » ناقدين الشعر العربى . . ممثلاً فى « شوقى » لأنه لم يقم على وحدة القصيدة كما هو الحال . . فى الشعر الانجليزى والأوروبى . . بل قام الشعر العربى . . على وحدة البيت . . واستقلال كل بيت عن الآخر فى الصورة والمعنى . . وهى

ملامح مميزة . . فى وجه الشعر العربى . . مختلفة عن ملامح الوجه . . فى الشعر الأوروبى وهو ما جعل لكل بيت جماله الذاتى . . مما يهز قلب السامع . . ويهز كفيه بالتصفيق لكل بيت . . مما أدىَّ إلى ثراء القصيدة كلها . . وهو ما يشبه الفيسفساء . . فى الزخرف المعمارى . . وهو ما لفت اهتمام الأوروبيين . . وجعلهم . . يطلقون عليه فى شعرنا . . ومعمارنا . . لفظ « أرابيسك » أو عرابيسك . . تلك هى شخصية تراثنا الذى يجب علينا مراعاته وليس يصح أن نطمس معالم شخصيتنا . . باسم « التجديد » أو « التطوير » .

ولقد حدث أخيراً مثل هذا الطمس التجديدى . . فيما سماه الشباب بإسم « الشعر الحر » مما أغضب العقاد نفسه . . وهو أيضاً . . نوع من التقليد . . والغزو الاختيارى . . على أثر الحركات التى قامت فى أوروبا . . على يد « إليوت » فى فرنسا . . وقبلهما على يد السورياليين «عقب الحرب العالمية الأولى » ولقد كنت أنا . . فى فرنسا ،، عقب الحرب العالمية الأولى . . وعاصرت بنفسى ظهور السيريالية وشعرائها . . ممثلة فى شباب ثائر . . فى مثل سننا . . وحاولت أنا أيضاً أن أقلد شعرهم الحر . . ولكننى تذكرت بعض آيات القرآن الكريم . . القصار . فراعنى ما وجدته فيها من أسلوب إلهى . . ليس بالشعر المعروف . . «وما علمناه الشعر . . وما ينبغى له » . . ولكن . . يشع بنور موسيقى علوية . . وإيقاع رائع أخاذ دون حاجة إلى القوافى . . فقلت لنفسى : هاهنا . . يجب أن يكون منشأ شعرنا الحر . . وليس إليوت أو بيرس . . أو السوريالية . . ونشرت ذلك مع أمثلة من آيات

القرآن . . الموحية فى كتابى « رحلة الربيع والخريف عام ١٩٦٤ من دار المعارف – ويظهر أن شعراء هذا الشعر العربى الجديد الحر . . مثل . . « عبد الصبور » من نبه إلى ذلك . . فنشر فى آخر كتبه قبل وفاته . . آيات من القرآن . . مما يوحى بأن هذا النبع العلوى . . هو الذى يجب أن يستلهم فيه الأدب المتجدد . نفحاته الجديدة . .

وإننى أسوق كل هذا . . لأنبه إلى ضرورة النظر إلى أعماق شخصيتنا . . وملامح الوجه المميزة فى تراثنا . . حتى لا يطمس التجديد هذه الملامح . . ويكون التأثر بالحضارة الفازية . . إضافة لنا . . ولها ، وليس هدماً لكياننا . . ومسخاً لملامحنا ويكون النقل والأخذ . . والغزو الذى نقبله . . هو الإنتاجى وليس بالأخذ الاستهلاكى .

● هذه الجذور العميقة . . التى تعيش فى وجدان وملامح الحكيم . . ماذا تركت من بقايا . . وانطباع . . هذا الشعر العربى . . الذى نرجو ألا تطمسه معالم التجديد . . ليتغنى به الحكيم ويذكره .

– لقد أعلنته مراراً لقرائى . . وأنا لا أمل من ترديده . . ومنه على ما أذكر : « لمهيار الديلمى » :

أستنجد الصبر فيكم . . وهو مغلوب . .

وأسأل النوم عنكم . . وهو مسلوب . .

وأبتغى عندكم قلباً . . سمحت به . .

وكيف يرجع شىء . . وهو موهوب . .

ما كنت أعلم ما مقدار . . وصلكم . .

حتى هجرت . . وبعض الهجر . . تأديب . .

● ومن شعر أبى تمام . . أذكر :

ظبى يتيه . . بوردة . . فى خده . .

خد عليه . . غلائل . . من ورده . .

ماكنت أحسب أننى . . مستمتع . .

فى قربه . . حتى بليت . . ببعده . .

لا شىء . . أحسن منه . . ليلة وصلنا . .

وقد اتخذت . . نحدة . . من خده . .

وفمى على فمه . . يسامر ريقه . .

ويدى . . تنزه . . من حدائق خلده . .

● أيضاً . . ما تغنى به « حافظ الشيرازى » فى الحب . . ما أبدعه :

حبى نسيم . . الربيع . .

قادنى إلى الصحراء . .

لقد حمل إلى النسيم رائحته . .

وأخذ منى . . راحتى . .

لقد جثوت . . فى الطريق . .

الــــذى عــفــرتــه . . قــــد مـــاهـــا . .

فلـــــم تــــــــدن . . منـــــــى . .

لقــــد ارتفعـــت . . تنهـــداتـــــى . .

فــأزعجـــــــت نـــوم . . الطيـــور . .

فلـــــم تفتـــــح . . عينيهـــــــا . .

ولو أنى . . أمامهـا . . مـت محترقـا . .

لمـا أطفـأت لهبى . . بأنفاسى شفتيها . .

● وما قاله « عمر بن معد يكرب » فى الجمال :

ليـــس الجمــــــال . . بمئــــزر . .

فاعلـــم . . وإن رديـــت . . بـــرداً . .

أن الجمـــــال . . معـــــــادن . .

ومناقــب . . أورثـــن . . مجـــــداً . .

كـم مـــن أخ . . لــــى صالـــح . .

بـوأتـــه . . بيـــــدى . . لحـــداً . .

ذهــــب الـــذيــــن أحبهـــــم . .

وبقيت مثـل السيـف . . فــــرداً . .

ويقول الحكيم : لقد كتبت الشعر فى مطلع حياتى . . فقط . . وهو .

عندى . . ليس من أنواع الأدب . . التى أهيم بها . . أما أم اسماعيل . . فكانت تواقة للشعر . . تحفظ قصائد القدماء والمحدثين وماتت وإلى جوارها ديوان « لإيليا أبو ماضى » .

● لقد تفضلت بإهدائك لى كتاب « ملامح داخلية » ونحن الآن كنا نستكشف هذه الملامح من خلال حوارنا . . هذا . . من الملامح الداخلية لتوفيق الحكيم . . وما يحويه الكتاب مما سجله فيه رجال الفكر والأدب والفن . . يجعلنى أتساءل . . ؟ لماذا جمعت هذه الأفكار . . مما كتبه هؤلاء الكتاب . . وهل لذلك من هدف . . ؟

– فى الحقيقة إن فكرة جمع هذه الأحاديث يرجع الفضل فيها إلى الفنان صلاح طاهر . . الذى قال . . وهو يرسم لى صورة زيتية . . أراد أن يبرز فيها . . الملامح الداخلية . . إلى جانب الملامح الخارجية . . إن هذه الأحاديث العابرة . . فيها من الملامح . . ما يضاهى ما ظهر من خلال مؤلفاتى . . وقد ساعدنى بالفعل . . فى جمع هذه الأحاديث لأطلع عليها . . وأراجع رأيه فيها . . فوجدت الحق معه . . فإن الكثير من أفكارى تظهر فيها أوضح . . مما تظهر من خلال الانتاج الأدبى والفنى . . الداخل فى إطار الصور والقوالب . . فإن يد الصناعة فيها قد اختلفت لتبرز الأفكار والآراء . . عارية . . متجردة . . من كل ثوب أدبى . . وفنى . . وهنا الفائدة لكل دارس . . يهمه أن يعرف المؤلف فى « ملامحه الداخلية » من خلال أفكاره فى كيانها الطبيعى . . متجردة . . من كل زى براق . . وإذا كان الزىّ هو الشكل الذى يظهر به للناس فى الطرقات فإن الأفكار هنا . . وهى عارية من الزى الأدبى . . والفنى . .

تبدو فى بساطتها . . وألفتها هى الشكل الذى تظهر به . . للأقربين داخل البيوت . . كما أن ظهور هذه الأفكار جاء بمناسبة أحاديث استخرجتها نخبة من أهل الصحافة والأدب . . فيما بين السنوات ١٩٥١ - ١٩٧١ - وكان لمقدرتهم فى المحاورة . . كل الفضل فى خروج هذه الأفكار - من مخبئها . . مما جعل من مجموعها . . ما يشبه الصورة المرسومة لملامح داخلية . . فكرية . . لا تبدو لكل الأعين بهذه البساطة . وهذا اليسر . .

وإننى أرجو . . أن أكون بهذه المحاولة . . قد عاونت قرائى . . على اجتياز العوائق التى قد تصادفهم عندما يطالعون كتبى . . فى قوالبها المختلفة .

■ ■ ■

● حقاً . . لقد تمكن كل من رجال الفكر والفن والصحافة والأدب . . من الغوص والتعمق . . وإبراز الملامح الداخلية لفكر ووجدان الحكيم . . وكان هذا هو « الجهاد الأكبر » . . فى جمع هذا السجل الشامل . . الذى أضاء الجوانب الخفية . . التى ما كانت تضاء إلا بجهاد هؤلاء الكتاب ، وفكر الفنان صلاح طاهر فى جمع هذه الأحاديث فى كتاب « ملامح داخلية » .



من هـو
عصفور الشرق ..
توفيق الحكيم ؟

« تحـــت شمس الفكـــر ..

رأيت النـور .. وعـرفت الحـب ..

ولكننـــي .. احتـــرقت .. »

« توفيق الحكيم »



● عصفور من الشرق . .

● كتب توفيق الحكيم كتابه « عصفور من الشرق » فى عام / ١٩٣٧ وقد ترجم إلى اللغة الانجليزية وكتب مقدمة الترجمة البروفيسور بيلى ويندر - وقال إن عصفور من الشرق . . ينضح بالصدق والإقناع . . حيث قد صور المؤلف أوجه التشابه . . ومواطن الاختلاف بين ثقافة الغرب . . وثقافة الشرق الأدنى . . من خلال تصوير التقاء محسن بالمجتمع الغربى فى صورته الباريسية حوالى عام ١٩٢٥ . . وهو يقول إن عصفور من الشرق . . قصة من واقع القصص التى تدخل فى نطاق . . « السيرة الذاتية »

وفى دراسة شاملة . . نشر بجريدة الأهرام عن « الحكيم رائد السيرة الذاتية . . فى أدبنا الغربى » والتى أوضحت تميز السيرة الذاتية . . عند توفيق الحكيم . . بعديد من الميزات التى قل أن نجدها عند كتاب السيرة الذاتية . . سواء فى عصره . . أو فيما سبقه أو لحقه .

وتقول الدراسة - إن هناك الكثيرين كتبوا السيرة الذاتية . . من أمثال (اعترافات) عبد الرحمن شكرى . . وأيام طه حسين . . وقصة حياة عبد القادر المازنى . . وأنا لعباس العقاد . . وحياة لأحمد أمين . . وسبعون لميخائيل نعيمة - ورحلة حياة لحسين فوزى . . ومع هذا . .

فإن السيرة الذاتية عند توفيق الحكيم . . تشتمل على معان . . لاتشتمل عليها هذه السير . . بالشكل الذى جاءت به .

ويمكن إيجاز ريادة توفيق الحكيم فى كتابة السيرة فى عدة معان على النحو التالى :

أولاً : أن السيرة الذاتية عنده لم تقتصر على شكل السيرة التقليدى أو خلال قصة تقليدية . . وما إلى ذلك . . وإنما تسللت فى معظم ما كتبه . . فنحن نجدها فى رواية (عودة الروح) ورواية (عصفور من الشرق) وقصة يوميات نائب فى الأرياف . . كما أنها تسللت فى كتابيه الملحوظين - سجن العمرو زهرة العمر - بالقدر الذى نجدها فيه من عملين فكريين نظاميين من أمثال : عدالة وفن . . وعودة الوعى ، فضلاً عن المقالات العديدة التى نجدها فى الدوريات المختلفة . .

إذن . . فإن التنوع فى الجنس الأدبى . . أو الفكرى . . أعطى هذه السيرة خصوبة واتساعاً عميقين .

ثانيا: أن السيرة الذاتية عنده ليست وقفاً على مفردات حياته التقريرية . . أو سجناً لسنوات بعينها وحسب . . وإنما هى تجاوزت هذا كله إلى غيره . . إذ أن السيرة الذاتية . . تتسع دائرتها لتشمل تاريخ الأمة وحضارتها العربية كلها . . فنحن فى (عودة الروح) . . أمام انبعاث روح الشعب المصرى كله . . فى ثورة ١٩١٩ . . ونحن فى (عصفور من الشرق) أمام قضية مواجهة حضارة لحضارة . . مواجهة حضارة الشرق الروحية . . لحضارة الغرب المادية . . ثم ونحن فى « يوميات نائب فى الأرياف » أمام التغير الحضارى . . وصورة أخرى . .

إننا أمام التسلل القانونى الوضوحى . . « الغربى » إلى واقع « شرقى » يختلف كل الاختلاف . . عن الغرب . . إن السيرة . . تمضى فى خطين متوازيين . . القاص : الحاكى ، والعام : روح الأمة .

أما الحاكى . . فهو القاص . . أو الروائى أو المسرحى . . أو الإنسان .

أما روح الأمة . . فهو واقع الوطن ومصيره فى هذا العالم العاصف .

ومن هنا . . فنحن لا يمكن أن نفهم مفردات حياة الحكيم ، فى معزل عن مفردات حياة الشعب وحضارته .

ثالثا: يرتبط بهذا . . أن السيرة الذاتية عند الحكيم . . واجهت قضية هامة من قضايا العالم العربى اليوم ، وهى قضية : كيفية العيش فى هذا العالم المعاصر . .

وبشكل آخر . . فإن الحكيم . . يواجه القضايا الفكرية الهامة التى يتعرض لها الفكر العربى . . إبان السيرة . . ويحاول الرد عليها . . وعلى سبيل المثال :

ففى « يوميات نائب فى الأرياف » يقف موقف النقد العنيف . . وربما السخرية . . من هذه القوانين الغربية التى يسعى الآخرون لتطبيقها . . فى مصر . . حيث يسكن فى مصر القاهرة . . طبقة (علمانية) ومثالية . . تحاول الأخذ بحضارة الغرب . . بينما يسكن فى مصر الريف– طبقات (واقعية) – ومصرية . . تحاول الارتباط أكثر . . بالتراث العربى والمصرى الأصيل . . العتيق . . وعلى هذا . . فإنه يدعو للنظر إلى تطبيق القانون الغربى فى مصر كنظرة جديدة .

● قصة زواج الحكيم . . كما كتبها فى مذكراته . . ونشرها فى مجلة «الوطن العربى» التى تصدر فى باريس . . وأعادها على فماذا قال فيها :

– كنت سعيداً موفقاً فى زواجى . . خصوصاً وأن زوجتى . . لم تضيّق على قط . . ولم تتذمر أبداً . . ولم تحد من حريتى . . فلقد كانت تفهمنى جيداً . . وتساعدنى فى عملى . . أسافر فلا تعترض . . أقفل الحجرة على طوال عشر ساعات . . أقرأ . . أكتب خلالها . فلا تسأل . . كيف . ؟ ولماذا . . ولا تتأفف . .

ولقد كتبت إليها إهداءً فى كتاب واحد هو (سجن العمر) فيما أظن . . فقلت : « إلى التى عاونتنى . . وساعدتنى فى إخراج هذا الكتاب . . وإنتاجه . . لما دبرته لى من جو الهدوء التام . . بابتعادها . . عن البيت . . ! ولقد كنت أحثها على مغادرة البيت حين أكون مشغولاً بالكتابة . . فأقول لها :

– انت مش تروحى تشوفى أهلك . .

فتفهم على الفور . . ماذا أعنى بهذه الملاحظة . ولقد كانت تقرأ كتبى كلها . . ومقالاتى . . كأى قارىء عادى . . أى أنه لم يحدث لى قط . . أن أطلعتها على كتاباتى . . قبل نشرها . . وأنا أعرف أنهم

يقولون : « وراء كل رجل عظيم امرأه » وإنما هذا لا ينطبق على . . فإن أشهر كتبى قد قمت بتأليفها . . قبل الزواج . . ومن ناحية ثانية . . فقد كانت زوجتى مثقفة . . قارئة جيدة . . تجيد الفرنسية . . ومغرمة جداً بالشعر العربى . . والأدب عموماً . . وكانت معجبة على وجه الخصوص . . بكتابات جبران خليل جبران . . وميخائيل نعيمة . . وشعراء المهجر . . ثم كانت عميقة الشعور الدينى . . والإيمان بالله . . كثيرة القراءة . . فى القرآن . . والكتب السماوية .

ثم أرجو ألا يفهم من حديثى . . عنها أنها كانت متزمتة . . مغلقة . . أو تافهة . . على العكس . . فقد ذهبت معى فى إحدى المرات إلى متحف اللوفر فى باريس . وجعلت تتفحص الصور بكل اهتمام وصبر وتلح على فى البقاء طوال النهار . .

وذهبنا إلى دار الأوبرا . . حيث شاهدت أوبرا (فاوست) المأخوذة عن (جوتة) وهى عميقة . . كما شاهدت مسرحية من أصعب المسرحيات وهى (الحلم) لسيرنديرج . . وشعرت أنا نفسى . . بشىء من الإرهاق فى متابعتها . . وما أن جاءت الاستراحة . . حتى أردت الانصراف كى أنام . . أما زوجتى فقالت : ألا نبقى . . لنتابع القسم الباقى .

وجاء يوم الوفاة - ٢٩ أبريل ١٩٧٧ الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وكان يوم جمعة . . وكنت أنا فى الخارج . . مع أصدقائى . . وقدموا لها الغداء . . فرفضت تناوله . . حتى أعود . . وترانى . .

وعدت فى الساعة الثالثة . . فطلبت الغداء . . وأكلت . . ثم همست فى أذنى : - « أنت حاتحزن على » . . ثم شهقت مرتين : آه . . آه . . وأسلمت الروح .

■ ■ ■

ويستمر السرد . . والحكيم يعترف بأنه نادم كل الندم على زواجه المتأخر . . فهو يقول بصدق :

« إننى نادم اليوم . . كل الندم . . على تأخرى فى الزواج . . فلو تزوجت فى سن مبكرة . . لكان لى الآن أحفاد كثيرون وأسرة كبيرة - ولذلك - فإننى اليوم من دعاة الزواج المبكر . . وأحث الشباب فى الإسراع فى العثور على (نصفهم الثانى) . . وفى اعتقادى أن الشباب يمكنه أن يتزوج فى الخامسة والعشرين من العمر . . بل هذا هو السن المناسب . . ومعنى هذا . . أننى تركت عشرين سنة تجرى من حياتى وأنا عازب - بلا مسوغ .

أجل إننى أتساءل بين الحين والآخر . . لماذا تزوجت فى سن الخامسة والأربعين لماذا . . ؟

إن أمى . . كانت ضد هذا الزواج المتأخر . . ولقد قالت لى ذات يوم :

- من الأفضل . . ألا تتزوج أبداً بعدما تأخرت طوال هذه السنوات . . وكان فى ظنها أن العزوبية أفضل . . وأسلم من زواج الشيخوخة . إننى أتجنب المرأة الغبية . حتى ولو كانت جميلة . . علما

بأنه ليس بإمكانى أن أتصور امرأة قبيحة فالجمال وحدة لا تتجزأ . . فجمال المرأة . . هو جزء من جمال الفن . . والطبيعة ، هذا عن أن المرأة القبيحة . . تعطل وظيفة العين . . وتشوه عملية النظر . . إذ أن القبح ينفر العين . . ويجعلها تنظر فى اتجاه آخر . . ولذلك . . فإنهم يقولون :

« الزوجة الصالحة . . تسترك إذا نظرت . . وتحفظك إذا غبت » .

واذا كانت المرأة عموماً (واحدة) أيضاً لا تتغير على صعيد الحياة الجنسية . . فإننى أفضل المرأة العربية . . على المرأة الأجنبية فى هذا الشأن . . فالعربية أقرب إلى العربى . . فى كل شىء . . فى التفكير والعقلية . . والقلب . . ولذلك فـإننى لا أشجع الزواج المختلط . . أو الزواج من أجنبيات . . فالتجربة علمتنا أنه زواج غير متكافىء . . وأقول هذا . . على الرغم من أننى أعرف مصريين . . قد نجحوا تماماً فى زواجهم من أجنبيات على سبيل المثال : طه حسين .

المهم . . أن يكون الزوجان منسجمين . . فى الثقافة والتفكير . . فالانسجام سواء على الصعيد الذهنى . . أو العاطفى . . هو أحد شروط الزواج الناجح . ولست أريد من هذا . . أن تكون الزوجة فى عين ذكاء الرجل . . وفى مستوى ثقافته وعلومه . . وإنما عنيت أن الغباء «غباء الزوجة » لا يؤمن (التجانس) المطلوب فى العلاقة المنشودة بين الزوجين . . فلابد من أن تشارك الزوجة زوجها فى الحد الأدنى من اهتماماته . . وأفكاره . . كما أننى أعتقد . . أن (فارق العمر) بين الزوجين . . لا يجب أن يكون مبالغاً فيه . . فإنى أسمع بحكايات

رجال متزوجين فتيات فى أعمار بناتهم . . كما أنى أسمع برجال . . يتزوجون نساء . . أكبر منهم عمراً . . وقد يكون هذا مقبولاً بصورة استثنائية فى بعض الحالات . . وإنما رأيى . . أن فارق العمر الأمثل . . بين الزوجين يمكن أن يكون فى حدود . ١٠ - ١٥ سنة .

لقد أنجبت من زوجتى - بنتاً وولداً - زينب وإسماعيل . . زينب خلفت بنتاً . إسمها مريم . . وولداً هو اسماعيل .

أما اسماعيل ابنى . . فقد توفاه الله . ولقد كانت وفاته حدثا . . هز أعماقى . . وسوف أروى ذلك . . فيما بعد .

لقد تزوجت أنا . . مرة واحدة . . كما والدى . . وبعد وفاة زوجتى بسنوات صار بعض أصدقائى يمازحوننى . . أو يقولون لى ببعض الجدية :

« لازم تتزوج يا توفيق بيه » . .

وهذا أمر . . لم يخطر على بالى قط . . ولقد ورثت عن والدتى قطعة أرض فى دمنهور . . منحتها لابنتى زينب . . فهى ورثيتى الشرعية . . وسوف أمنحها كل شىء . . كل ما أملك . . وأنا أكتب وصيتى . . كتبت باسم زينب كل ما فى حوزتى . . وهذا ليس كثيرا . . فإنهم يروجون عنى أننى مليونير. . وهذه أكبر كذبة .

إن ابنتى تقيم فى الاسكندرية وأنا أزورها عادة فى فصل الصيف . وتزورنى هى فى القاهرة . . مرة كل شهرين . . تأتى فى الخامسة أو السادسة مساء . . وتنام ليلة . . وتغادر فى الصباح الباكر . . وقليلاً

. . ما تتصل بى هاتفياً . . أو أتصل بها . . فهى على العموم . . تتحاشى أن تسبب لى . . أدنى إزعاج .

إن المرأة الأخيرة فى حياتى هى الخادمة العجوز التى تشرف حاليا على شئونى فى البيت . . عمرها يناهز السبعين سنة . . وهى تحضر لى طعامى . . وتدبر أمورى . . وأنا لا أستقبل أحداً اليوم فى بيتى . . لكيلا أسبب لها إزعاجاً . . فهى لا تقدر . . وقد بلغت هذا العمر . . على الانهماك . . باستقبال أصدقائى وزوارى .

■ ■ ■

● هى سيرته الذاتية . . بكل الصدق . . تماماً كما وصف لنا سيرته الذاتية . . فى سجن العمر . . وولعه المبكر بالالقاء التمثيلى . فى المدارس مع فريق من أقرانه التلاميذ . وفى بادىء الأمر . . اتخذ ولعهم بالإلقاء التمثيلى شكل المطارحات الشعرية . وأنشأ هؤلاء التلاميذ فيما بينهم . . مسرحاً ارتجالياً سموه « مسرح المنظرة »

وانتقل مسرح المنظرة من مرحلة الارتجال إلى مرحلة تمثيل مسرحيات مكتوبة أسهم فيها حسين توفيق الحكيم بنصيب وافر . .

وظل شغف توفيق الحكيم بالمسرح يجرى فى دمائه . . أيام أن كان طالبا فى الجامعة . . وبعد أن تخرج فيها . . ونما إلى علم أهله وذويه أنه يخالط المشتغلين بالفن المسرحى . . فثارت ثائرتهم عليه . . وهددوه بالويل والثبور وعظائم الأمور . وقرروا حفاظاً على كرامة العائلة أن

يبعدوه عن جو المسرح الموبوء . . فأرسلوه فى عام ١٩٢٥ إلى باريس ليحصل على درجة الدكتوراه فى القانون . . وسافر الحكيم بجسده إلى فرنسا . . أما روحه . . فقد تركها وراءه فى مسارح القاهرة وملاعبها . . كما يتضح من خطابات أرسلها إلى صديقه محمود كامل رئيس تحرير مجلة « الجامعة » .

وفى باريس . . قرر هذا الأديب أن دراسة القانون الجافة . . لا تتفق مع ميوله الفنية . . وآثر أن ينصرف إلى دراسة المسرح . . وينكب على ملاحقة الأدب الأوروبى - وخاصة الأدب الفرنسى . . ؟ (توفيق الحكيم الذى لا نعرفه - د . رمسيس عوض)

■ ■ ■

وقدم راديو باريس مسرحية الحكيم « السلطان الحائر » مترجمة إلى الفرنسية . . باسم سلطان للبيع . . وكان هذا العمل الفنى . . مزيجاً من الإمتاع والعمق . . واتضاح الفكرة الانسانية . . التى تربط الانسان فى كل مكان .

■ ■ ■

● وأصبح توفيق الحكيم . .

أما عصفور من الشرق . . فكان له النصيب الأوفر من الاحتفاء به فى باريس . . وهو فى الثمانين من عمره . . ليعرض الفيلم . . . ويظهر فيه هذا العصفور بنفسه . . على الشاشة . . ويحقق حلمه . . فى التمثيل . . الذى راوده منذ الصبا . . ويرى قصة حبه مع بائعة

التذاكر . . وهى حفيدة الحبيبة الأولى . .

ومثل صباه . . الفنان نور الشريف .

وجسّد المخرج الفنان « يوسف فرنسيس » شخصية الحكيم . . وأبطال قصته « عصفور من الشرق » تجسيداً صادقاً ويروى الفنان يوسف فرنسيس - ذكرياته . . حين التقى الموسيقار محمد عبد الوهاب، بتوفيق الحكيم فى باريس يوم أن طار ليمثل شخصية نفسه . . فى فيلم «عصفور الشرق » وسأله :

هل حقاً ستمثل يا توفيق ؟

ورد الحكيم ساخراً :

- نعم . . أصعب الأدوار . . سأمثل نفسى . ؟

ويقول يوسف فرنسيس :

- كانت الأعوام قد أنهكت قوى الحكيم . . ولكنه سافر . . معاندا الأيام ليلتقى بشبابه الباريسى . . بحبه الأول . . لإيفا - بائعة التذاكر فى مسرح « الأوديون » .

صعد توفيق الحكيم . . السلالم الطويلة مجهدا . . ولكن بفرحة حقيقية . . ودارت الكاميرا تصور أول مشاهد الفيلم الذى مثله الكاتب الكبير توفيق الحكيم . . وظن الجميع - أنه جزء من الواقع .

● ويسجل الفنان يوسف فرنسيس مخرج الفيلم . . ملابسات - وذكريات هذا التسجيل . . فيقول .

- إن توفيق الحكيم . . قد عبر عن إعجابه بنور الشريف . . وقال إنه أصلح من يمثله فى شبابه . . وأهداه البيريه الذى ارتداه فى باريس . . واحتفظ به طوال عمره . . قائلاً فى سعادة - وقد اكتشف أنه يناسبه تماماً - وأن المطابقة . . قد تكون فى الأفكار . . والأحاسيس أيضاً .

وقد تمازج فيلم « عصفور الشرق » مع فيلم « يوميات نائب فى الارياف » فى بانوراما . . شفافة مليئة بالأحاسيس . . والانفعالات . . والمؤثرات الصوتية الرائعة . . ؟

ويقول يوسف فرنسيس :

- لقد كان المخرج « توفيق صالح » هو أول من أخرج فيلم « يوميات نائب فى الأرياف » واختار له الباليرينا المصرية « راوية عاشور » بوجهها الخمرى الجذاب . . وعرض الفيلم فى باريس وفى الصالة المقابلة . . كانت تتألق - « الفنانة سعاد حسنى » فى دور « ريم الخرساء » فى فيلم «عصفور الشرق » وجلس المخرجان على سلالم العرض . . (يوسف فرنسيس وتوفيق صالح) يتحدثان فى مودة . . تجمعهما ذكريات ريم - توفيق الحكيم . . التى قال عنها :

« كانت صورة بديعة . . هزت نفوسنا جميعاً . . عاقلنا . . ومجنوننا . . ومخلوقاً حلواً . . منحنا أوقاتا حلوة . ولحظات مشرقة . . ونسيماً عليلاً . . هب على صحراء حياتنا العاطفية المجدبة . فى هذا الريف القفر .

وكان الناقد الفرنسى قد استقبل القصة فى ١٥ يناير /١٩٧٥ - سنوات قبل ظهور الفيلمين . . قائلا عن الكتاب وصاحبه :

- فى « توفيق الحكيم » . . يتغلب الكاتب القصصى . . والشاهد . . قوى الملاحظة .

وهى قوة ملاحظة « توفيق الحكيم » وانعكاساتها فى كتاباته . . التى ساعدت فى تحويل أفلامه إلى الشاشة .

ويبدو أن عشقه الطويل . . والبعيد فى حب التمثيل . . والمسرح . . ساعده على رسم الملامح الواقعية لأبطال قصصه . . ؟ وها هو « أحمد مظهر » فى « الرباط المقدس » يعتبر نموذجاً للشخصية المرسومة فى وضوح . . والمتحركة فى يسر فى داخل الحدث . . وحيث الحوار . . يخرج من الرومانسية والواقعية . . ولا يخلو من لمسة سخرية ذكية ولماحة .

وهذا الإحساس العميق الذى طالما تحدث فيه توفيق الحكيم . فى علاقة الرجل بالمرأة . . يبرز لنا . . فى « العش الهادىء » وبرغم ماردده عن نفسه « عدواً للمرأة » لكننا نجده مقبلاً عليها . . أكثر من هارب فيها . . وهو ينصح شبابه :

« نابليون انتصر فى كل المعارك لكنه هرب أمام المرأة . . فاهرب أنت أيضاً . . ؟

ولكن الحكيم لم يهرب . . وإن استبقى بعد الزواج حقيبة رمزية . .

ليهرب بها . . وأنجب مخرجاً هو : إسماعيل الحكيم فناناً . . الذى ضم الى دراسة الاخراج عشقه للموسيقى . . حتى آخر أيام شبابه القصيرة . . وكانت أمنية الكاتب الفيلسوف العميقة أن يرى ابنه مخرجاً وراء الكاميرا . . لأنه أول من أحب المسرح والسينما . . وعرف صعوبة النجاح على خشبة المسرح . . وأمام كاميرا الفن السابع .

وهكذا بدأ توفيق الحكيم « عصفور الشرق » حياته فى مستهل شبابه وصباه بالتمثيل وأنهى حياته فى شيخوخته بالتمثيل . . ورأى نفسه فى فيلم « عصفور الشرق » يؤكد به صدق رؤاه الفنية . . بين التأليف والتمثيل . . بفضل مخرج فنان هو : يوسف فرنسيس .

من أقوال توفيق الحكيم :

● إنتاج الأدب الكاشف عن معدن النفس العربية . . وإعدادها . . وتوجيهها إلى جوهر الحضارة هو الدور الأساسى للأدب فى معركة المصير.

● التزام الأديب . . يجب أن ينبع من حريته . . والالتزام . . غير الإلزام .

● أتمنى أن توجد لغة مسرح موحدة . . يضيق فيها الخلاف بين الفصحى والعامية .

● المسرح المصرى الآن . . مشكلة محيرة . . ولا أدرى ما السبب .

● لا شباب . . ولا شيخوخة فى الفن والأدب . . ولكن يوجد فقط . فن . . وأدب .

● اشتراكية الفن . . بالنزول بغذاء الشعب الروحى . . بالارتفاع بقيمة هذا الغذاء . . ليسو بذوقه . . وتسمو إنسانيته .

● لا خير فى فكرة لم يتجرد لها صاحبها . . ولم يجعلها رداءه . . وكفنه . . بها يعيش . . وفيها يموت .

● الحرية . . هى الهواء الضرورى لسعة الصدر والعقل . . الحرية هى الدواء الحقيقى . . للأمة المريضة .

●عندما يظهر الذهب ببريقه . . ورنينه . . فاعلم أن المبادىء . . فى خطر .

لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس . . بغير أنبياء مجاهدين .

● ليس المهم للإنسان أن ينجح بل المهم . . أن يكدح .

● الرق . . لم يذهب من الوجود لقد اتخذ شكلاً آخر . . يناسب هذا العصر . . لكل عصر . . رقه . . وعبيده .

● الحلم . . فنان حاذق . . يأتى أحياناً بالمعجزات فى رؤوس النائمين .

● كل شىء فى الكون . . يدور . . نسأل الطبيعة عن سرها . . فتجيبنا باللف والدوران .

● الدين والأدب . . كلاهما يضىء من مشكاة واحدة . . ففى الدين والفن : السماء هى المنبع .

● الثواب فى الفن . . كما فى الدين . . على قدر المشقة .

■ ■ ■

مؤلفات الحكيم . . ومسرحياته التى ترجمت إلى لغات أجنبية :

● كل مؤلفات المفكر . . توفيق الحكيم ترجمت من اللغة العربية الى عديد من لغات العالم . . ومنها :

● باللغة الفرنسية :

● شهرزاد - عودة الروح - يوميات نائب فى الأرياف - أهل الكهف- عصفور من الشرق - عدالة وفن - بيجماليون - الملك أوديب- سليمان الحكيم - نهر الجنون - عرف كيف يموت - المخرج - بيت النمل - الزمار - براكسا .. أو مشكلة الحكم - السياسة والسلام- الشيطان فى خطر - العش الهادىء - بين يوم وليلة - أريد أن أقتل - الساحرة - دقت الساعة .

● باللغة الانجليزية :

● يوميات نائب فى الأرياف - شهر زاد - الملك أوديب - سليمان الحكيم - السياسة والسلام - شمس النهار - صلاة الملائكة - الطعام لكل فم - الأيدى الناعمة - شاعر على القمر - الورطة - مصير صرصار - كل شىء فى مكانه - السلطان الحائر - نشيد الموت - أدبنا اليوم - محمد رسول الله - عودة الوعى - المرأة التى غلبت الشيطان .

● بالايطالية - والأسبانية - والروسية :

● أهل الكهف - عودة الروح - شهر زاد - بيت النمل - السلطان الحائر - يوميات نائب فى الأرياف - والى جانب ظهور يوميات نائب فى الأرياف باللغتين .. الفرنسية والانجليزية - فقد ترجم الى الألمانية .. والرومانية .. وترجم ونشر فى السويد .. كما ترجم .. ونشر باللغة العبرية .

● وقد سجل الحوار القومى - بجريدة الأهرام - دور توفيق الحكيم.. تسجيلاً أمينا .. فهو العصر .. وهو التاريخ .. وهو الذى استقر فى قلب الوطن .. وأصبح جزءاً لا يتجزأ .. من العقل

والوعى الجمعى . . كواحد من البنائين العظام . . وسوف يدور الجدل صاخباً حول دوره . . وإبداعه . . إلا أن ثمة ثوابت . . لا يمكن لأحد أن يتجاوزها فى تقديره لمجمل عطاء الرجل . . وإنجازه . . ورسالته . . وهو أنه المبدع الأول الذى أعطى لفن المسرح - كأحد أبرز الأجناس الأدبية - مشروعيته فى تاريخ . . « الأدب العربى » . . وقام بتأصيل أطره . . وعناصره . . وخطابه . . وعالمه فى أدبنا - بلا جدال - وفى كونه كان يمثل مؤسسة ثقافية متكاملة الأبعاد والأدوار . . استطاعت التأثير فى مجمل عمليات التغير الحضارى والثقافى فى مصر . . بل إنه استطاع أن يكون أحد جذور شجرة الأجناس الأدبية الحديثة . . وخرج من معطفه . . مبدعون كباراً . . استطاعوا صياغة العقل والوجدان المصرى والعربى . . وكان دوره بارزاً فى عمليات التفاعل الثقافى - مع الثقافة العالمية . . فى منابعها . . وروافدها كافة . الأمر الذى انعكس إيجابياً على تطوير عمليات التحديث . . ولكن من خلال محاولة إيجابية . . لتأصيل التحديث فى قلب الثقافة الوطنية المصرية فى منابعها العديدة . . بحثاً عن الروح المصرية . . ومكونات الشخصية الوطنية من أجل أن تستعيد مصر عافيتها الحضارية . . ودورها . . ورسالتها بين الأمم . . وهو بهذه المثابة . . كان أحد الآباء الفكريين . . لنظام يوليو / ١٩٥٢ - حيث أثرت « عودة الروح » وكتاباته المناهضة للأحزاب على وعى قادته - وقد أثارت كتاباته السياسية . . موجة عارمة . . من الجدل الصاخب . . إلا أن الحكيم سيبقى كمؤسسة . . وعالم أدبى . ساهم فى صياغة . . وعى وضمير . المصريين المحدثين . . بلا جدال .

لوسى يعقوب

خـاتمـة

هذا هو « توفيق الحكيم » عصفور الشرق الذى رحل عنا فى مساء يوم الأحد ، فى السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩٨٧ ، وبرحيله فقدت مصر ، والعالم العربى ، بل فقدت الإنسانية كلها ، علماً شامخاً من أعلام الفكر والأدب والفن ، بعد أن أثرى الحياة الأدبية والفكرية والفنية بالعديد من المؤلفات التى ستظل خالدة على مر الأجيال ، تنهل الإنسانية من نبعها الفياض .

رحم الله توفيق الحكيم ، جزاء ما قدم لوطنه ومواطنيه وللإنسانية من عطاء .

الفهرس

عربية للطباعة والنشر
٧ ، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



عصفور الشرق

توفيق الحكيم

يقدم عصارة فكر « راهب الفكر » وخلاصة تجاربه . . وقد استطاعت الكاتبة التى عايشَتْ توفيق الحكيم ، أن تقدم لنا فى هذا الكتاب حواراً شائقاً ممتعاً حول فكره الأصيل المتنوع ، من خلال كتاباته وأعماله ، التى جابت الآفاق شهرة وانتشاراً ، وتُرْجِمَتْ إلى عدة لغات عالمية ، ولقيت إقبالاً كبيراً من القراء فى الدول العربية والغربية على حد سواء .

إن «توفيق الحكيم» قد ملأ فراغاً فى المكتبة العربية فى الثلاثينيات والأربعينيات بمؤلفاته المسرحية والأدبية . . وسيلمس القارىء لهذا الكتاب إلى أى حد أثر الحكيم فى حياتنا الثقافية فى تلك الفترة وما تلاها . . لقد استطاعت الكاتبة أن تستجلى جوانب مهمة من حياته وثقافته وأفكاره . . يمكن أن تكون مرشدة لكل باحث ومهتم [قرش جنيه ٨٠] الحكيم .

الناشـر



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس ٣٩٠٩٦١٨ برقياً دار شادو ص.ب ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O. Box 2022 Cairo Egypt PHONE 3936743 3923525 FAX 3909618 CABLE DARSHADO